المنعرج الكبير

بقلم: البشير بن سلامة

إن ما يجرى فى تونس فى هذه الأيام بمناسبة الانتخابات التشريعية لا يهم التونسيين فحسب بل يدخل ، ولا شك ، فى مشاغل أهل العروبة والاسلام بصورة خاصة ومواطنى العالم الثالث بصورة عامة . ذلك أن هذه الانتخابات تندرج ضمن طريقة أخرى فى اسلوب الحكم تنتقل من اعتماد الحزب الواحد ـ كعمود فقرى فى ميادين العمل السياسى ـ الى السماح بما سمى بالتعددية المعروفة فى العالم الغربى كضمان للديمقراطية .

وفى الواقع فان مثل هذه الانتخابات التى تشارك فيها عدة تنظيمات سياسية قد عرفتها تونس فى أوائل الاستقلال . ولكن قوة الحزب الاشتراكى الدستورى المتاتية من انتصاره على الاستعمار نظرا الى قدرته على التنظيم واستقطاب الجماهير أثناء الكفاح التحريرى جعل هذه التنظيمات تتضاءل وفسح المجال للحزب الدستورى الجديد ليضم أغلب الاتجاهات والقوى الموجودة فى البلاد فكان لا حزبا واحدا بل حزبا وحيدا .

ولم يكن الحزب الاشتراكى الدستورى يعمل نظريا بمقتضى ما درج عليه نظام الحزب الواحد فى بعض البلدان فى نطاق ما يسمى بالمركزية الديمقراطية ولكن الاحداث دلت أثناء التطبيق على أن التجاوزات ممكنة والانحراف عن

المسار الديمقراطية ميسور ، ولذا قرر المجاهد الاكبر الرئيس الحبيب بورقيبه الرجوع الى السنة المتبعة ومواصلة السيرة التى سار عليها الحزب الجديد منذ تاسيسه سنة 1934 .

ومهما تكن نتائج الانتخابات فان هذا القرار سيكون له أثره الكبير فى الحياة السياسية فى تونس تمسكا بالديمقراطية وتشبثا بالاشتراكية واعتبارا للحريات الفردية والعامة واعتقادا بأن هذه السبيل هى أسلم السبل التى نتوخاها لنحافظ على وحدة البلاد ونخدم مصالح الجميع ونصون كرامة المواطنين ونضمن مناعة الوطن .

وليس فى نيتي أن أفيض القول فى هذه التجربة التى نخوض غمارها فى تونس لتحليل ابعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وهو ما ستتيحه لنا الفرصة فى مناسبات أخرى بل إن غرضي هو التدليل على أن ما اخترناه الآن كأسلوب من أساليب الحكم وكبلد ينتمى الى البوتقة العربية الاسلامية والعالم الثالث إنما هو السبيل الوحيدة للنجاة من كل آفات الحكم القديمة والحديثة والدخول فى منعرج جديد فيه الصعوبات والمشاكل والعراقيل لا محالة ولكنه فى إمكانه أن يؤمن الوطن من مغبة الانفراد بالرأى والاصرار على الخطأ اللذين يعدان من الاخطار الاساسية لكل انخرام فى الحكم.

ولكننى اريد أن أؤكد ـ ونحن دائما نرجع الى ماضينا لاننا مشدودون اليه ـ على الآفات التى كانت سببا فى تدهور الحكم الاسلامى بعد ازدهاره ونالت من الحضارة العربية الاسلامية بعد تفوقها .

أول هذه الآفات هو عجز المسلمين على تجسيم فكرة الشورى التى كانت من الاسس الواضحة البينة فى العقيدة الاسلامية ، فلقد انكب الفقهاء على تدقيق كل جزئية تهم مشاغل المسلم فى دينه ودنياه الا مسألة الشورى فلم يتم تجسيمها فى هياكل منظمة وبقيت فكرة هوائية تذكر فى المناسبات ولكن لم يعمل بها الا فى القليل النادر لا فى عهد الخلفاء الراشدين الذين لم يتفطنوا

الى خطورتها اللهم الا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو فى حالة احتضاره بعد تعيينه لستة من الصحابة..وأمره أن يكون أمرهم شورى بينهم ولا فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى كان حريصا على تطبيق الاسلام فى أدق مستشرياته .

وفى الحالة الاولى ، أى فى عهد عمر بن الخطاب ، لم يكن ليتصور العرب ـ وهم لم يطلعوا بعد على الحضارات الاخرى القديمة الممارسة للمديمقراطية مثل اليونان ـ طريقة فى الحكم تعتمد على الانتخاب والمجالس ، وفى عهد عمر بن عبد العزيز فانه لم يكن فى مقدور هذا الخليفة التقي أن يصل به الامر الى اخراج أهل بيته من الخلافة بعد أن جاهدوا فى الجاهلية وفى بدء الاسلام لينصبوا أنفسهم ملوكا على العرب .

لهذا فانه ، بعد أن أخذت الخلافة الصبغة الدينية من جهة والصورة الوراثية فى الملك من جهة أخرى لم يكن لأى فقيه أو أى فيلسوف القدرة على الاصداع برأيه فى هذا المجال او حتى الاستفاضة فيما كانت الامم القديمة تمارسه من أساليب الحكم بل إن الكتب ألفت فى تقنين الامر الواقع وضبط الاحكام السلطانية التى تجيز الحكم المطلق المصطبغ بالصبغة الالهية وفى كلمة أوضح فان الحكم صار ، كما قالت العرب عند انتصاب الامويين ، ملكا عضوضا .

وبطبيعة الحال فان هذا كان مدعاة الى الانفراد بالمجد ، كما كان يقول ابن خلدون ، والميل الى الحكم المطلق والى الدكتاتورية والكتلاتية (Totalitarisme) التى أصبحت شكلا جديدا وعصريا لهذا التسلط الذى تجيزه الوسائل التقنية المتطورة .

وإن الدكتاتورية فى شكل الانفراد بالحكم كانت ، ولا تزال ، تؤدى دائما الى الحرب مع الدول المجاورة تعبئة للطاقات فى الداخل وخوفا من الحرب الاهلية وتأتى فى القديم فى صورة التوسع وأخذ خيرات الغير وتتخذ بالنسبة الى عصرنا ذريعة بتصديرها للثورة ونشر الدعوة مهما كانت دينية أو ايديلوجية .

وأمام هذا الصنف من الحكم لم يكن من خيار للمسلمين بعد انتهاء مدة الخلفاء الراشدين الا الالتجاء الى النحل ـ ولا أقول : المذاهب الاربعة ، لانها كانت نعمة على المسلمين توضيحا للاصول وتدقيقا لاحوالهم ـ وتسببت هذه النحل المفضية أساسا الى العمل السياسى فى تفريق المسلمين باتخاذ الدين مطية وبالحنين الى ملل قديمة كمثل القول بالمهدى المنتظر والامام المعصوم والميل الى المانوية المفضية الى تكفير المسلم وإباحة قتله طلبا للشهادة لدخول الجنة .

وإن العقلية النحلية هى الآفة التى قوضت الحكم الاسلامى واضعفته وجرته الى الخضوع للاستعمار وهى هى نفسها التى تهدد المجتمعات المعاصرة حتى المتقدمة منها . فالعالم الغربى مثلا ، الذى عانى طيلة قرون من الحروب الاهلية والجهوية والعالمية وصل الى درجة من النضج اتخذ فيها الديمقراطية اساسا للحكم والتعددية شكلا من أشكال الحياة السياسية وأقر الانتخاب والحوار والرضى بكلمة الاغلبية مهما كانت قوة نسبتها ولكنه للاسف ما يزال يرزح تحت سيطرة العقلية النحلية : (Mentalité sectaire) المتلونة تلونا يتخذ فى بعض الاحيان صيغا براقة من الثورية والتقدمية ولكنه يحمل بين طياته الكفر بالآخر والحقد عليه والسعى الى اذايته والاخطر من هذا هو القول بالتقية والجنوح الى العمل السرى الخفى والتمسك بالباطن تنكبا عن كل وضوح .

وهذا أدى ، بالنسبة للمسلمين ، الى الخلط بين السياسة والدين والقول بالسلطة الدينية ولست أريد هنا أن أتطرق الى الحجج التى أدل بها محمد عبده فى دحضه للقائلين بان هناك سلطة دينية فى الاسلام ولكننى ابسط حجة واحدة تجعلنى أستبعد بها هذه الصيغة منالحكم وهو أنالعالم الذىاصبح اليوم يخضع الى سنن اقتصادية مضبوطة ترتكز علىالاحصائيات وعلى القوانين العلمية الحسابية الراسخة فى الدقة الرياضية وغيرها من العلوم يقتضى سياسة تعتمد على مثل هذه الميادين الاقتصادية والاجتماعية وعلى المخططات المضبوطة التى يرسمها الراسخون فى هذا العلم من اقتصاديين واعلاميين ومهندسين واجتماعيين ، فالسياسة التى تمارسها الاحزاب اليوم تعتمد برامج

حجتها هي هذه العلوم وهي علوم صحيحة لا يمكن لاى انسان مسلم او غير مسلم أن يشك فى جدواها وصلاحيتها ، فكيف يمكن مناقشة برنامج حزب من الاحزاب على أسس غير هذه الاسس والادلاء بحجة ترتكز على نص ديني مسلم به لا يمكن مناقشته ولا تأويله ؟ فارضية النقاش متغايرة وليست واحدة . بل ان الامر فيه إبكات ومنع من الحوار والمناقشة . نعم يصح القول بانه من الواجب الاستناد ، فى فلسفة السياسة وماهيتها وما ينجر عنها من قرارات ، على الشريعة الاسلامية وأصولها ولكن فى خطوطها العامة التى لا تبعد عن الاسلام الصحيح المتطور الصالح لكل زمان ومكان والمتفتح بعلوم العصر .

هذه إذن بعض الآفات التى كانت سببا فى انهيار حكم الاسلام وما تزال تودي بالانظمة فى العالم وخاصة العالم الثالث وهى التى يجب تجنبها وتجاوز اعراضها .

وإن التجربة التى نمر بها فى تونس اليوم ، كما سبق القول ، لكفيلة فى ظني أن تصل بنا الى ما نصبو اليه من قوة ومناعة .

البشير بن سلامة

محمد مزالي ومجلة « الفكر »
والأمس المفضي إلى الحاضر

بقلم : جوّاد صيداوي

هذه « الذكريات » التي أرسلها الى « الفكر » أثارتها في نفسي رسالة من الاستاذ محمد مزالي الوزير الاول جوابا على رسالة مني طلبت فيها من حضرته المشاركة في تحقيق أقوم باعداده حول « التراث والمعاصرة » . وكنت أعلم علم اليقين يوم أرسلت بطلبي مدى انشغال الوزير الاول .. لذلك كانت المفاجأة كبيرة جدا عندما وردني جوابه الكريم مع رسالة خاصة ، ومع شعوري بالاعتزاز عادت الى ذهني بعض صور الماضي يوم كنت في مدرسة مجلة « الفكر » طيلة ثلاث سنوات (1957 الى 1960) ، فاخترت من تلك الصور بعضها تحية اكبار مني للسيد محمد مزالي الوزير الاول المفكر والاديب .

يقول رومان رولدن في مستهل الكتاب الذي وضعه عن حياة بتهوفن : « لقد أصبح الجو في أوربا خانقا .. فلنفتح النوافذ لنتنسم هواء الابطال » .

العام 1956 يلفظ أنفاسه تحت ضغط الاحداث . الشرق الاوسط يعيش فترة انتقال بالغة الحدة تختلط فيها الاحداث والشعارات اختلاطا عجيبا . لبنان ، « الأخ الأصغر » ، يغدو ، كالعادة ، مسرحا تنعكس فوقه مآسي العالم العربي ومهازله . أجواء خانقة ، وآفاق ملبدة تنذر بمختلف الاحتمالات .

— هل تذهب الى تونس ؟

سألتني رئيسة دائرة العلاقات الثقافية في وزارة التربية . فاجأني السؤال ، فظننته مزاحا . ولكن المزاح كان عين الجد . ولم أكن أعرف عن تونس إلا كونها موطن أبي القاسم الشابي ، وبأنها كانت ، لفترة قريبة ، تخوض نضالا بطوليا في وجه الاستعمار الفرنسي حتى تمكنت أخيرا من حيازة استقلالها بقيادة الزعيم الوطني الحبيب بورقيبة ورفاقه .

وبدون أن أطرح أي سؤال عن ظروف العمل وشروطه قلت :

ـ أذهب !

وأنجزت معاملات السفر بسرعة . وعلى متن الطائرة التقيت بزميلة لبنانية كانت ، هي الاخرى ، ذاهبة أيضا للتدريس في تونس . وكانت شديدة التأثر لمغادرتها لبنان ، فلم تنطق طوال الرحلة إلا بكلمات معدودات .

وفي القاهرة ، وبسبب توقف اضطراري استمر ثلاثة أيام ، انتهزت الفرصة لزيارة السفارة التونسية علني أتزود ببعض المعلومات عن البلد « الشقيق » الذي كنا نجهل عنه كل شيء . فاستقبلني الملحق الثقافي : محمد العروسي المطوي وقدم لي العدد الاخير من مجلة « الفكر » ، وأشار لي الى قصيدة له في ذلك العدد . وترك لقاء القاهرة في نفسي أول انطباع « أدبي » رفيع من جانب هام من جوانب موطن الشابي . وعلى صفحات « الفكر » توالت أمام عيني أسماء جديدة : محمد مزالي ، الطاهر قيقه ، الشاذلي القليبي ، البشير المجدوب ، محمد العروسي المطوي ، محسن بن حميده وآخرون .. وقرأت بشغف .. وعادت الى ذاكرتي الضجة الادبية التي أثيرت في مؤتمر الادباء العرب في القاهرة ، قبل أشهر قليلة ، حول كلمة تونس في المؤتمر المذكور والتي ألقاها محمود المسعدي .. وبدأت الغيوم تنقشع عن ذهني رغم أن الامطار كانت غزيرة جدا فوق مطار « العوينة » لدى وصولنا .

ومن الفندق الكائن في « البساج » توجهنا في اليوم التالي ٧ الزميلة اللبنانية وأنا ، الى وزارة التربية . فقادنا أحد الموظفين الى مكتب مدير التعليم الثانوي . فاستقبلنا شاب أنيق صبوح الوجه بابتسامة مضيئة . وبعد أن هنأنا بسلامة الوصول متمنيا لنا اقامة مريحة في تونس . طلب ملفاتنا ، وكتب على كل ملف بعض الكلمات ثم توجه بالحديث الى الزميلة قائلا :

ـ ستدرسين في معهد ترشيح المعلمات . وسوف ترتاحين في عملك مع مديرة المعهد لأني أعرفها جيدا ، فهي .. زوجتي !

ولأول مرة أرى الزميلة ، بعد تجهم خيم على وجهها طوال الرحلة المرهقة ، لا تبتسم فقط ، وإنما تضحك كطفل .

ثم توجه نحوي قائلا والابتسامة لا تفارق ثغره :

ـ أما أنت فانهم ينتظرونك ، منذ شهرين ، في المعهد الصادقي بخزندار.

وبعد يوم أو يومين عرفت أن الشاب الذي استقبلنا في وزارة التربية ببشاشة عربية أصيلة هو محمد مزالي مدير التعليم الثانوي ورئيس تحرير مجلة « الفكر » .

وطوال الاسابيع الاولى التي قضيتها في الفندق ، كانت قدماي تسوقاني كل مساء بعد عودتي من خزندار ، باتجاه شارع بورقيبة وتـألمت ، في الايام الاولى ، من أن اللغة الفرنسية ، في موطن الشابي ، تكاد أن تكون وحدها السائدة خاصة في الاماكن التي كنت أتردد اليها . أين هي تونس العربية ؟. وراودني أكثر من مرة ، بيت البحتري ، في السينية الشهيرة ، والقائل :

واشترائي « العراق » خطة غبن بعد بيعي « الشـام » بيعة وكس

حتى في المعهد الصادقي بخزندار ، وفي قاعة الاساتذة ، جميع المعاملات والاحاديث والتعليمات باللغة الفرنسية ، وبدافع الخوف من ارتكاب الاخطاء عند تحدثي بها ، كنت أعتصم ، في الغالب بالصمت ، وذات يوم تقدم مني زميل تونسي هو محمد بن صالح وحدثني بالعربية وبلهجة « مشرقية » ، فشعرت ببعض الراحة وأفضيت اليه بما يعتمل في صدري خاصة بالنسبة للغة الفرنسية .

فقال بلهجته المحببة ونبرته الندية :

ـ هذه ظاهرة موروثة ولكنها في طريقها الى الزوال ؟ فتونس كما تعلم حديثة العهد بالاستقلال ، بعد استعمار طال قرابة ثلاثة أرباع القرن ، وسوف تكتشف أن هذه الظاهرة مقتصرة على بعض الاوساط فقط .

وبالفعل سرعان ما اكتشفت الحقيقة .

ففي يوم عطلة مشرق ، غيرت وجهة سيرى ، فبدل الذهاب نحو شارع بورقيبة العريض ، سرت فى اتجاه معاكس ، ووجدت نفسى وسط ساحة شعبية غاصة بالناس . الجميع يرتدون الألبسة التونسية ، والجميع يتحدثون اللهجة التونسية العربية . وطالعتنى مكتبة صغيرة تمتلىء بالكتب والمجلات العربية حتى فاضت محتوياتها على جزء من الرصيف . وامتدت يدى الى مجلة « الفكر » بغلافها الأبيض ، وفى مقهى قريب وأمام كأس من الشاى «المنعنع» انطلقت « أحتسى » المقالات والقصائد بنشوة من يحتسى كأسا « زحلاويا » . وتشاء الصدف أن أجد دراسة بعنوان « الشعر والثورة الجزائرية » كتبها الهادى حمو ، وتمعن الصدف فى مشيئها فاذا بالكاتب الكريم يورد بين الشواهد قصيدة للفقير اليه تعالى بعنوان « أغنية الى الجزائر » مع تقريظ منه دغدغ غرورى الادبى الى أقصى حد . وهذه القصيدة كانت مجلة « الثقافة الوطنية » اللبنانية قد نشرتها قبل مغادرتى لبنان . فحملت المجلة وفى نيتي الاتصال بأسرع وقت ممكن بادارتها . وبما أن الاخ البشير المجدوب أحد أعضاء أسرة تحرير « الفكر » كان زميلا فى المعهد الصادقى بخزندار ، فقد أنبأنى بأن أسرة التحرير تجتمع مساء كل يوم سبت فى مكتب الادارة (13 نهج دار الجلد) .

وانتظرت أول يوم سبت . وفى الساعة السادسة مساء طرقت الباب ودخلت محييا ومعرفا بنفسى ، وبنفس الترحيب وبنفس الابتسامة استقبلنى محمد مزالى رئيس تحرير « الفكر » كما استقبلنى ، قبل أسابيع ، محمد مزالى ، مدير التعليم الثانوى ، وكان يحيط به نفر كريم من أدباء تونس ومفكريها ، حيث وضعوا جميعا ، أسس النهضة الادبية فى بلدهم . وأصبحت بكل اعتزاز ، ومنذ تلك الليلة ، عضوا فى أسرة « الفكر » وطيلة السنوات الثلاث التى قضيتها فى ربوع الخضراء .

لم أكن أعرف كيف كان محمد مزالى « الموظف » يدير شؤون وظيفته فى وزارة التربية القومية ، ولكن الخطوات الواسعة التى حققها التعليم الثانوى بادارته وقبل انتقاله الى الادارة العامة للشباب والرياضة ، تدل على نجاح أكيد : فحملة « التعريب » المتزنة والواعية ، وإزالة آثار الاستعمار التربوية والفكرية بعيدا عن التشنج ، وتحديث التعليم التقليدى ، من الدلائل على نجاحه .

ولكن ما عرفته جيدا ، أو بالاحرى ما عايشته بكل جوارحى هو أسلوب محمد مزالى ، المفكر والاديب ، ومنهجه فى تنشيط الحركة الادبية والفكرية فى تونس ، وفى بداية مرحلة الاستقلال الوطنى ، عبر مجلة « الفكر » بالذات ، وعبر حركة التأليف والنشر فى شكل عام .

وكان الواقع الادبى والفكرى فى أواسط الخمسينيات من هذا القرن محكوما بمنهجين اثنين فى التفكير ، يغلب على أحدهما التأثير الغربى ويغلب على الثانى التأثير المشرقى ، وكان الصراع بينهما خفيا ولكنه حاد ، واذا كان محمود المسعدى قد نجح ، بمقدرته الذاتية الفائقة ، على صهر المنهجين فى منهج عربى تونسى فريد فى مؤلفاته ، فان محمد مزالى تمكن بجهده الدؤوب على تعميق هذا المنهج وتعميمه ، اذا صح التعبير ، على جيل كامل من أدباء تونس . ففى الاجتماعات الاسبوعية التى كانت تعقد فى مكتب «الفكر» ، كان محمد مزالى يستمع الى كل ما يرد الى المجلة من مواد أدبية وفكرية ، ولم يكن يدلى برأيه حول مستوى « المادة » الا بعد أن يستمع الى آراء الحاضرين جميعا ، وهكذا جعل من « رئاسة التحرير » رئاسة جماعية ، لان الرأى الفردى يظل ، على الغالب ، معرضا للوقوع فى الخطأ . وعندما يحتدم الخلاف حول نص ما ، يستعيد قراءته مرة ثانية مصغيا بكل جوارحه الى الشكل والمضمون فى وقت واحد مهما طال الوقت . واذا كان لأحدنا نبرة خطابية لدى قراءة القصائد الواردة الى المجلة ، طلب منه بلطف أن يعيد قراءة القصيدة على نحو لا يؤثر فيه النطق على بعض الحاضرين . وهذا السهر المضنى على مستوى المجلة هو الذى ضمن لها هذه الانطلاقة الرائعة فى تلك الفترة الصعبة من تاريخ تونس ، كما ضمن لها هذا الاستمرار فى التألق خلال ربع قرن ، علما بأن محمد مزالى حرص فى أن تضم أسرة تحرير « الفكر » ممثلين عن شتى التيارات الفكرية فى المجتمع التونسى ، هذا مع افساح المجال رحبا أمام الاقلام العربية الاخرى ، وفتح نوافذ على الثقافات الاجنبية المختلفة ، مما جعل من مجلة « الفكر » مدرسة أدبية وفكرية كاملة .

ولم تؤثر المسؤوليات الحكومية التى أنيطت بمحمد مزالى على سهره الدائم ورعايته للحركة الادبية والفكرية فى بلده ، فبالاضافة الى مجلة « الفكر » ، أنشأ اتحاد الكتاب التونسيين سنة 1971، برئاسته « لايجاد الظروف الملائمة لقيام الكاتب التونسى بدوره كما يراه هو . ولهذا فان الاتحاد يضم أغلب الكتاب، فى تونس لا الادباء فقط ويحتضن جل الاتجاهات الفكرية والادبية .

هناك أرضية للعمل قوامها خدمة التفاهم البشـرى والاحتـرام المتبـادل بين الشعوب والذود عن حرية الفكر ومساندة جميع القضايا العـادلة فى العـالم وتأييد الكتاب المدافعين عنها أو المضطهدين من أجلهـا والدعـوة الى الاخـوة الانسانية واقرار السلم فى العالم ومناهضة الاستعمار والتمييـز العنصـرى وكل أعمال التعسف والعنف والقهر والاستغلال » (1) .

هذه « الارضية » لعمل الكتاب التونسيين والتى يتحدث عنها محمد مزالى، أليست هى الارضية الخاصة لعمل حكومته أيضا ؟

لا عجب إذن أن يتدرج محمد مزالى صاعدا فى سلم المسؤوليات حتى يغدو الوزير الاول فى بلده ، ولا عجب أيضا أن ينجح محمد مزالى فى مهمته الكبرى الراهنة كما نجح فى سائر المهام التى أنيطت به منذ بداية حيـاته الفكـرية والسياسية ، فالثبات على الموقف ، والصمود أمام الصعـاب ، والوضوح فى الرؤية ، والتشبث بالقيم الانسانية ، والصدق فى القول والعمل ، والانفتاح على الناس والافكار ، والثقة بالنفس وبالآخرين .. من الصفات التى تصنـع الرجـال .

جواد صيداوى

(1) مجلة « الفكر » العدد 9 ـ جوان 1980 .

السيجارة

شعر: جعفر ماجد

تعودتُ منك بهذا اللقاء
تَعَوّدتُ أتعابَ وَجْهِكَ عِنْدَ المَساءِ
تعودتُ منك اقترابك مني
وعُمقَ التهاويم فيك ومَسْحَةَ حُزْنِ
تَعوّدتُ سيجارةً أشتهيها
وقَولَكَ لي: «دَخّنيها»
بذاكَ الزّمان وَذاكَ المكانْ
فأرْفُضها رَغْمَ شَوْقي لَهَا والحنانْ،
«أنا لَمْ أدَخِّنْ بِعُمْري فَدَعْني
وحَسْبِي أنّ الحَيَاةَ دُخَانْ!»
ولَمْ أدرِ يَوْمًا لماذا قبلتُ
وأشعلتُ سيجارةً وَاشْتَعلتُ
وأحسَسْتُ بالأرض تَهْرَبُ مني
وأني إلى عالم آخرٍ قدْ رَحلتُ
وَفي غَيْمَةِ التبغ جَددتُ عمري
وَفي غيمة التبغ أيضا قُتلتُ
وأحسَسْتُ أنّ القتيلين ما بيننا قاتلانْ
فَمَاذا فعلتَ وَمَاذَا فعلتُ..؟
وأحسَسْتُ أني وأنك سيجارتانْ
وأنّا احترقنا ... وأنّا دخانٌ.. دخانٌ.. دخانْ

حركات الإصلاح الاجتماعي في العالم الاسلامي

بقلم : د. شكري فيصل

مدخـل : مقدمـات وحـدود :

هذا البحث لا يهدف الى دراسة حركة بعينها من حركات الاصلاح .. وانما كان سبيله انه نظر فى جملة هذه الحركات وحاول ان يدرك منحاها الرئيسى وان يتبين اتجاهاتها ، وان يتساءل عما خلفت فى حياة الجماعة العربية والاسلامية فى القرن الماضى .

ان مادته تتعلق بالحاضر ، ولكن منطلقه يبدأ من الماضى .. من هذا التساؤل الذى يلح علينا جميعا كلما نظرنا فى هذا الواقع الذى نحياه ، وهو : لماذا لم تحقق هذه الحركات الاصلاحية الكثيرة غاياتها فى مجتمعاتنا .. على حين حققت النهضات فى بعض البلاد الاسيوية والاوربية غاياتها فى مدى زمنى هو دون هذا المدى الزمنى الذى شغلته حركاتنا .

واذا كانت اليابان استطاعت فى نحو من نصف قرن ان ترتفع من امة زاحفة على الثرى الى أن تطأ الثريا ، كما نقول ، وان تمتلك اسباب تشارك فى النهضة العلمية والصناعية وان تنتقل من التخلف الى التقدم ، وان تغادر الشعوب التى حولها الى الشعوب التى فوقها وان تشق مدارها فى فلك هذه الشعوب..فلماذا لم يتحقق لنا مثل هذا التقدم على طول المدى الزمنى الذى شغلته النهضات ، وعلى تنوع هذه النهضات ، وعلى انتشارها بين شعوبنا المختلفة من اقصى البلاد العربية والاسلامية الى اقصاها .

ان هذا الانطلاق من ملاحظة الماضى انما هو فى حقيقته توجه نحو المستقبل وكما يقف الافراد على محطات الزمن يتساءلون ، يحاسبون انفسهم

او يحاسبون غيرهم وينظرون فى عوائقهم وعلائقهم ، على حد تعبير المتصوفة ، نقف نحن كذلك فى السنوات الاولى لاستهلال هذا القرن نتساءل ونحاسب ذواتنا ونرسل انظارنا النقدية هنا وهناك نفلسف علة التخلف وأسبابها ما كان أوليا من هذه الاسباب وما كان من الاسباب الثوانى .. ما كان اصلا فى العلة وما كان فرعا .

« ان الاعتبار » هو الهدف من تحرك الموضوع فى هذا الاتجاه واستخلاص النتائج هو الذى يهمنا « لا نريد من ذلك لا لوما ولا عتابا .. لا نريد ان نصدر احكاما لا بالتبرئة ولا بالتجريم ٠٠ اننا نريد الفائدة التى نستعين بها على متابعة الطريق فحسب ٠٠ نريد ان نعرف اذا كانت خطانا على الطريق الاصلية ام هى خارج حدود هذه الاصالة ٠

ولذلك لن يكون فى كل ما نتحدث به او نذكر اى مظهر من مظاهر الحكم واذا بدا شىء من ذلك خلال الموضوع فهو انما يتسرب عرضا ، وغرضه التنبيه والتبيين وليس غرضه التفريع والتشهير ... ان هؤلاء الذين تقدمونا جزء من ماضينا ٠٠ فاذا اخطأوا او اصابوا فانما كان ذلك بحكم البيئة التى من حولهم او الظروف التى كانت تحتاطهم او الوضع الملجىء الذى كانوا يضطرون اليه نتيجة عوامل خارجة عن ارادة الافراد احيانا او عن ارادة الجماعات ٠

ولاننا لا نستقبل القرن الخامس عشر فرادى وانما نستقبله ونحن نؤلف هذه الجماعة الانسانية العربية المسلمة ، بكل عواطفنا وآلامنا ، بكل آمالنا وتطلعاتنا ، نشتكى جميعا مما كان نزل بنا ، وترف اعيننا لاستقبال السنوات التى نتخلص بها من عقابيل هذا الذى نزل بنا ... لاننا نلقى القرن الجديد جماعة يشترك ما بينها فى العواطف والبواعث ، وتعانى من ذات الادوار والعلل ويكاد يشترك ما بينها فى المصير ٠٠ بل ان وحدة المصير فى عالم ضمرت ابعاده وتقاصرت حدوده ، وانقسم هذا الانقسام الشنيع الى عالم المتقدمين وعالم المتخلفين ـ وحدة المصير هذه اضحت واقعا يسمو فوق كل واقع ويعلو على كل الفروق والخلافات ، ويقتضى من اصحابه موقفا واحدا ونظرية موحدة وسيرة ـ « استراتيجية » واحدة فيما يستقبلون من عهود ٠

وعلى ذلك كان الباحث لا ينظر الى بلد بعينه ولا الى حركة بذاتها انه واحد من هذه الملايين الكثيرة العربية المسلمة التى تواجه مع بداية هذا القرن مواقف

المسؤولية ومواقف الاحساس بها والتنبيه لها وحساب الذات على اساس منها انه احد هذه الملايين التى تشعر بالظلم الحضارى والتمايز البشرى والفـرق الكبير بين بنى الانسان ، ويصعقه ان يرى هذه الفروق التى تتعاظم وتتضخم يوما بعد يوم دون ان ينفع منها اصلاح او نهضة ، على شدة ما يعانى اصحاب هذه النهضات ودعاة هذه الاصلاحات من محاولات لتحقيق الخير ٠

وكذلك يلتقى الماضى والحاضر والوصف والدراسة ، والعرض والتساؤل على صياغة هذا الموضوع : فكره وروحه ، ملاحظاته واسلوبه ٠٠ فى محاولة تبدأ من حساب الذات وتريد ان تنتهى الى استشفاف الطريق ٠

وليس استشفاف طريق جماعة كبرى كالجماعة العربية والاسلاميـة بالامر السهل ، ولا يقوم لكاتب بمهمة التنظير لذلك فالامر فوق ان يفكـر فيه أو يدعيه وانما هى نقاط على الطريق يتلمس اضاءتها ، حتى اذا تتابعت الجهـود على مثل هذه الاضاءة امكن ان يترسم من ذلك نهج واضح .

القسـم الاول :

ملامـح هذه الحركات الاصلاحيـة :

وحين يمر الانسان بهذه الحركات الاصلاحية حتى ينفذ الى تعاليمها وآرائها وحين يتعرف الى دعاتها واصحابها ، وحين يقرأ لهم ما كتبوه أو ينظر فى الذى فعلوه فان الذى ينتهى اليه او يستقر عنده انما هو هذه الجملة من الملاحظات ٠ وستثير هذه الملاحظات التى تنبت من واقع هذه الحركات سلسلة من الملاحظات الاخرى حول ما ناخذ وما ندع ، وما نفيد منه او نعرض عنه ٠

1 ــ أبرز هذه الملاحظات التى تطفو على السطح عند القراءة والتتبع ان هذه الحركات الاصلاحية شملت العالم العربى الاسلامى كله ٠٠ فقل ان نجد قطرا من اقطار هذا العالم الا وقد نبتت فيه حركة اصلاحية او ظهر فيه مصلح كبير او داخلته عوامل من القلق ادت الى ان تمتلىء اذهان الناس فيه بالصورة الامثل وتلتهب عواطفهم بتحرك اقوى بغية مغادرة الواقع ونشدان ما هو افضل منه .

فمن اقصى الشرق الى اقصى الغرب كانت هذه الحركات ٠٠ لم تكن فى قلب هذا العالم العربى الاسلامى فحسب « محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة ،

وانما كانت كذلك فى اطرافه وحدوده ٠٠ كانت فى تونس « خير الدين التونسى ، محمد بيرم » وكانت فى ليبيا « الحركة السنوسية » كانت فى مصر « الافغانى ومحمد عبده » وكانت فى الهند « احمد خان » كانت فى سورية وكانت فى دار الخلافة ، كانت فى ايران « ناصر الدين شاه » وكانت فى جنوب شرقى آسيا ، وكانت فى بلاد الافغان « الامير عبد الرحمن » كما كانت فى جزيرة العرب ٠٠ فى كل مكان من هذا الشرق العربى المسلم كانت هذه الحركات تظهر وتنمو ، وتمتد عدواها وآراؤها لتوجد جوا من التنبه ، ولتولد حركات اخرى مماثلة او مشابهة ، تبعا للظروف التى تحيط بها والبيئات التى من حولها .

2 ـ ثانى هذه الملاحظات ان هذه الحركات كانت كثيرة وكانت متنوعة ٠٠ كثرتها تتمثل فى اعداد كبيرة من المصلحين ٠٠ منهم من كان له منهجه فأبانه وتحدث عنه ، ومنهم من لم يثبت هذا المنهج فاكتفى بالعمل فى هذا النطاق او ذاك ٠٠٠

وتنوعها يتمثل فى انها شملت اكثر جوانب الحياة العلمية والقضائية والسياسية والعسكرية لم تكن تغادر جانبا الا داخلته ، لا فرعا من فروع الحياة الا كان لها منه موقف .

3 ـ ثالث هذه الملاحظات تتعلق بنوعية هذه الحركات ، فقد تأرجحت بين ان تكون ثورات مسلحة (الامير عبد القادر الجزائرى ـ عبد الكريم الخطابى ..) وبين ان تكون دعوات فكرية لم تمارس العمل المسلح وعلى ان البحث فى اصله لا يتناول هذه الثورات المسلحة الا انه من الممكن ان نلاحظ ان هذه وتلك من هذه الانواع كانت تتكامل فيما بينها او تتعاقب او يولد بعضها بعضا فالثورات المسلحة كانت احيانا نتيجة لعمل فكرى انتهى تخمره وتجمعه الى تغير نوعى فى طبيعته ، آل الى ثورة « الثورة العرابية فى مصر » ... والافكار الاصلاحية جاءت أحيانا نتيجة لبعض الثورات فى الاقطار التى ولدت فيها او فى الاقطار التى جاورتها « على باشا مبارك بعد الثورة العرابية » .

4 ـ ولعل من هذه الملاحظات التى يحسن ان نشير اليها ان بعض هذه الحركات الاصلاحية قام بها سلاطين وامراء (محمد على باشا ـ السلطان القانونى) أو وزراء (مدحت باشا فى تركيا ـ خير الدين باشا التونسى ،

تونس) فى نطاق الدولة نفسها ·· وبعضها مما قام به افراد من العلماء الافذاذ او المفكرين فى نطاق الجماعة (الافغانى ـ محمد عبده) ·· اما والصورة الاخيرة التى تمثلت بها الحركات الاصلاحية فتعتبر فى الحركات الحزبية (الحزب الوطنى فى مصر) · وليست هذه الحركات الحزبية فى نطاق البحث

وليس عجبا ان تتكاثر هذه الحركات وان تتنوع فى صيغها واشكالها ومواطنها ومضامينها فى الوطن العربى والعالم الاسلامى ·· ذلك اننا اذا تذكرنا ان اللقاء بين العرب والمسلمين وبين الحضارة الحديثة انما كان فى اطار الحركة الاستعمارية الاوربية التى ارادت ان تفيد من ضعف المسلمين السياسى وتمزقهم الاجتماعى وغفلتهم عن واقعهم ·· وان هذه الحركة الاستعمارية كان لها هذان الاثران المتناقضان : كانت مثيرة من نحو وكانت مثبطة من نحو آخر كانت مخربة على نحو ما كان من لفتها الى الاعمار ·· كانت مفتتة وان كان لها بعد حين اثارات وحدوية ·· كان لها بعض منطقها الايجابى ولكن الاثار السلبية لهذا المنطق كانت فوق الاثار الايجابية اذ كان عملها فى تخريب الوحدة فوق عملها فى ايقاظ هذه الوحدات وكان تخريبها فوق ما كان من إعمارها ، وكان تثبيطها فوق الذى كان من اثاراتها ·

لم يكن عجيبا اذن ان تنتشر هذه الحركات على طول الوطن العربى والبلاد الاسلامية ، وان تتناول اكثر اطراف الحياة سياسة وادارة ، لان الحركات الاستعمارية كان لها مثل هذا الامتداد فى الارض ومثل هذا التسلط على الحياة ولكن ردود الفعل كانت تتخالف بفارق الظروف الخاصة . ومن هنا اتخذت هذه الحركات الى جانب تماثلها احيانا اشكالها المتميزة احيانا اخرى .

القسم الثانى :

عوائق فى طريق هذه الحركات :

وما من شك فى ان هذه الحركات لم تعط ثمارها المرجوة دائما ، ولم تكن هذه الثمار فى مثل الاوقات التى يجب ان تكون فيها ، واذا كانت تتلاقى فيما بينها على هدف مشترك هو مغادرة التخلف الحضارى فى جوانب الحياة المختلفة ، فهل نستطيع ان نتساءل لماذا لم يتحقق لها هذا الهدف المشترك على النحو المرجو .. وهل نستطيع ونحن على باب قرن جديد تجوز سنواته الاولى ان نتبنى الاسباب التى كانت وراء النجاح او وراء الاخفاق حتى نستطيع ان نفيد من ذلك فى تقويم المسار أو ترشيده ؟

ان المتتبع لهذه الحركات فى سيرة اصحابها ليتبين بوضوح ان المجتمعات العربية والاسلامية لم تكن حرة فى اتخاذها ما تتخذه ولا فى ترك ما تتركه حين كانت تواجه الحضارة الحديثة وتحاول ان تتخلى عن مواقعها فى دنيا التخلف وان قوى من القوى الخارجية كانت دائما تفسد عليها رأيها وتشوه تدبيرها ٠٠ والامر هنا لا يتعلق بالحركات الاستعمارية فحسب ٠٠ ولكنه يشمل مرحلتين: مرحلة ما قبل الحركات الاستقلالية ، كما يشمل مرحلة ما بعد هذه الحركات حين خرجت هذه الشعوب من قبضة الاستعمار .

الشعوب العربية والاسلامية واجهت الحضارة الحديثة ، واستيقظت تريد ان تاخذ منها ، وان تاخذ بها ، وان تشارك فى صنعها ٠٠ كانت علامة الحياة الاولى فيها انها احست بغفلتها وتاخرها ، وانها انتبهت مذعورة فوجدت ان العالم الغربى قد تقدمها وخلفها وراءه بعيدا ٠٠ فكان لابد لها ان تتبين مكانها المتخلف وان تتملس الطريق للخلاص منه ٠٠ ان اسهامها الحضارى السابق كان كفيلا بأن يشق امامها السبيل الى تدارك ما واجهت من نقص والى اللحاق بالركب ولكن الذى حدث ان العالم الغربى ، ماخوذا بعداواته التقليدية المتمكنة منه ، لم يشأ لها ذلك ، وانما اراد لها ما هو نقيض له ، فاخذ نفسه بأن يضرب عليها بالاسداد وان يقطع عليها الطريق الى كل غاية ٠

اننا لا نتحدث هنا عن هذه الخصومات الدينية والحربية ، لانا لسنافى مقام التاريخ ٠٠

وانما نريد ان نتبين اسباب الاخفاق الذى منيت به هذه المجتمعات العربية والاسلامية فى تحركها نحو الافضل ٠٠ على حين كان كل شىء فى ماضيها وموقعها وطبيعة معتقداتها واصول حضارتها وكثرة عديدها وتوزعها فى مناطق مختلفة من العالم ـ كان كل ذلك يدفعها الى ان تكون فى الصفوف الاولى وان تظل لها مواقعها فى هذه الصفوف الاولى ٠٠ فهل اخطأت الطريق : هل ضلت الغاية ؟ هل يرتد هذا الاخفاق الى مقصور ذاتى ؟ ٠٠٠ كان الامر متصلا بطبيعة هذه الشعوب كما يقول ذلك بعض المفكرين الغربيين « رينان » ام هى ظروف خارجية حالت بينها وبين تحقيق ذاتها وارادتها ؟

أ ـ عوائق خارجية :

الحق ان الامر لا يعود الى شىء من القصور الذاتى فحسب وانما هى سلسلة

من العوامل والاسباب التى تظاهرت كلها على ان تحول بين هذه الشعوب وبين ان يثمر مسعاها فى التحرك نحو الحياة الجديدة .

١ ـ واول هذه الاسباب يعود الى المواجهات الاولى بين هذه المجتمعات وبين الحضارة الحديثة فقد اتصفت هذه المواجهات بكثير من التحدى ومن مظاهر الاذلال ... وتناول هذا التحدى والاذلال ابرز ما يميز به الافراد والجماعات : تناولت معتقدها وتاريخها فكان لذلك ما كان من اثار سيئة اقامت هذا السد النفسى بين هذه الجماعات وبين معطيات الحياة الجديدة .

وتفصيل ذلك ان المؤرخين يجمعون على ان حملة بونابرت كانت بداية هذا اللقاء بين الشرق العربى والعالم المسلم من جهة وبين هذه الحضارة من جهة اخرى ... وواضح ان هذا اللقاء لم يكن لقاء سلميا ، وانما رافقته جيوش الاحتلال وابواق الحرب واصوات المدافع ... فهو اذن لقاء بدأ مع احتلال الارض واذلال الناس والهجوم عليهم فى عقر دارهم .. فافسد ذلك الى حد كبير حركة هذه المجتمعات وتطلعها .

ومن هنا فان الذى تعود المؤرخون ان يقولوه ، حين يدرسون اسباب النهضة واقتران ذلك بحملة نابليون والبعثات العلمية التى رافقته وبعض مظاهر الحضارة التى اجتلها نقيض صارخ للحقيقة ومحاولة ـ لا ندرى كيف تسربت الينا ـ لتحويل الآثار السلبية لهذه الحملة الى آثار ايجابية ، واعتبار الفضل فى حركتنا الفكرية وتحركنا الاجتماعى عائدا الى هذه الحملة والى مثلها .

والامر فى حقيقته ، عند الدراسة المتأنية مجاف لذلك مناقض له ، فالناس الآمنون فى القاهرة فتحوا اعينهم على خيل نابليون وهى تقتحم ابواب الازهر وتدوس حرمه ، وبعض العلماء ـ والعلماء فى قمة التقدير الاجتماعى فى المجتمعات الاسلامية ـ لقوا شيئا كثيرا من الاذى بلغ حد القتل .. ولم يكن الامر مواجهة حضارية وانما كان مواجهة حربية .. والضمير العربى والاسلامى لم يكن قد غفل عن الحروب الصليبية وانتقاص الشوافى الاسلامية فى افريقية ومهاجمتها كان متداولا معروفا .. فكيف نتوقع ان تكون النتائج النفسية لهذا اللقاء الاول ؟

من المؤكد انها ستكون مباعدة بين هذه الجيوش وما يقال عما كانت تحمله من اسباب النهضة ، وانها ستخلف هذا الشرخ النفسى العميق بين هذه

الجماعات والشعوب الامنة وبين هذه الجماعات والشعوب الغازية ، وان الناس لن يفتحوا عيونهم على مطبعة يحملها هذا الجيش لتنشر انباءه ولا على جماعه من العلماء ينظرون فى الآثار او ينقبون عنها او يمسحون الارض وانما سيفتحون عيونهم على جيش مسلح وقوى دخيل ، واستفزازات تمس عقيدتهم واحتلال ليغرس فى ارضهم وركائنات ودعاوى تساق اليهم ليس لها من الصحة نصيب (١) .

هذا الا ان دنيا العرب والاسلام لم تكن كما تعودنا ان نتصورها غارقة فى الجهالة الى شحمتى الاذن ٠٠ ولم تكن افكار النهضة والاصلاح افكارا اجنبية واحدة ولم تكن الحياة الاسلامية جسدا هامدا ٠ خافتا ٠٠ كان هناك دعاة للاصلاح وكان هناك مفكرون يحثون على النهضة وكان فى عاصمة دولة الخلافة

---

(١) يذكر الجبرتى قصصا مثيرة من ذلك : « فلما وصلوا بهم هناك راى بالتاريخ عروهم من ثيابهم وصعدوا بهم الى القلعة فسجنوهم الى الصباح فاخرجوهم وقتلوهم بالبنادق والقوهم من السور خلف القلعة وتغيب حالهم عن اكثر الناس اياما ٠

انظر ما كتبه الجبرتى فى اوائل الجزء الثانى تحت عنوان « ما وقع لاهل مصر من محاربة الفرنسيين واثار الفتنة : « ثم دخلوا الى الجامع الازهر وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالاروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والاوانى والقصاع ، والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها ، وبنعالهم داسوها ، واحرقوا فيه وتغوطوا ، وبالويته تمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه اخرجوه . وانتهت حرمة تلك البقعة بعد ان كانت اشرف البقاع ».

ثم يقول بعد صفحة : « وهدموا عدة مساجد منها المساجد المجاورة لقنطرة انبابه ومسجد المقس المعروف الآن بأولاد عنان على الخليج الناصرى بباب البحر ، وقطعوا نخيلا كثيرة واشجارا لعمل الحصون والمتاريس وهدموا جامع الكازرونى بالروضة ، واشجار الجيزة التى عند ابى هريرة قطعوها ٠٠ وقطعوا نخيل الحلى وبولاق وخربوا دورا كثيرة وكسروا شبابيكها وأبوابها وأخذوا أخشابها لاحتياج العمل والوقود .

حركات فكرية وتحركات اجتماعية وكان من الممكن لو ترك لهذه الحركات حرية النماء الطبيعي والنماء العفوى الذى يستجيب لحاجات المجتمع وضرورات الحياة ان تعطى ثمارها وان تغادر هذه المجموعة البشرية طور التخلف ، وان تأخذ باسباب الحياة الجديدة واساليبها ٠٠ اذ كان كل ما فى مواقف التحدى التى واجهتها . يدفعها نحو نشدان اسباب القوة والحياة .. ولكن الهجمات الاستعمارية التى لبست اقنعة مختلفة بادىء الامر : قناع التجارة او قناع الحضارة او قناع الانتصار الكاذب للاسلام ٠٠ هذه الهجمات غيرت الاتجاه الطبيعي للنمو الحضارى المرتقب ودفعته فى مسالك ضيقة من العداوات المادية والمعنوية من مثل الاحتلال الاستيطانى والاستغلال التجارى والمواجهات الدينية ـ فاذا نحن نقرن بين وعينا الظاهر وبين وعينا العميق بين الحضارة وبين الغزو باشكاله المختلفة .. فكان من ذلك ان تكونت فى ضمير الجماعات العربية والاسلامية مثل هذه العقد تجاه الحضارة وتجاه بعض مظاهرها بل تجاه بعض مسلماتها .. واذا نحن ننفر من الحضارة ونفر فى مثل هروب الخائف الذى يحاول ان ينشد معتصما له او ملجأ ـ الى الاستمساك بالذى كنا عليه والاعتصام به ٠

وقد كلفنا ذلك بعد ، عقودا من الزمن ، وعهودا من الجهود من أجل رأب هذا الصدع النفسى الذى تكون بين مجتمعاتنا وبين الاقبال على الحضارة ، بذلها بعد ذلك المصلحون والمفكرون على مدى زمنى طويل .. وكان حريا ان تبذل هذه الجهود وان تتعقد هذه العقود فى اكتساب الحضارة لا فى التمهيد لها ٠

2 ـ وقد يبدو للوهلة الاولى ، مثل هذا الكلام غريبا او مبالغا فيه بعد الذى حشونا فيه اذهان اجيالنا عن اسباب النهضة فى البلاد العربية وربطنا ذلك بالحملة الفرنسية على مصر ٠٠٠ ولكن الذين يعرفون السنن النفسية لتطور الافراد والجماعات يطمئنون اليه ويدركون اثر هذه المواجهة الحضارية التى

ويقول فى موضع آخر : « وجعلوا جامع الظاهر بيبرس من خارج الحسينية قلعة ومنارته برجا ووضعوا على اسواره مدافع واسكنوا به جماعة من العسكر وبنوا فى داخله عدة مساكن تسكنها العسكر المقيمة به ٠٠ »
وأخذ بعد صفحات امثله من المناشر التى كانوا يكتبونها على السنة المشايخ ويلصقونها بالاسواق .. وصف فيها بونابرت بانه « رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ٠٠ » ووصف الفرنسيون فى بعضها بانهم يحبون المسلمين وملتهم ٠٠ وانهم انصار السلطان ٠

خالطها الدم والاذلال والخداع ٠٠ فاذا اضفنا الى ذلك ما كان بعد هذه اللقاءات الاولى مع الحضارة من مواقف واحداث حروب اطمأننا الى انه لم يكن في تفسير هذه الظاهرة شيء من مبالغة او تفخيم ٠

ذلك ان الحضارة الغربية تابعت اسلوبها في عقد الصلات بين الشرق والغرب وكأنها عمدت عمدا الى تنفير الجماعات العربية والاسلامية بما اتخذت من مسالك واستخدمت من اسباب ٠٠ فاذا تجاوزنا الاستعمار نفسه من حيث دراسة اثاره ــ وقد كان الاستعمار قمة هذه الوسائل وجماعها ــ الى ما رافقه من حركات التبشير والاستشراق واجهنا شكلا جديدا من اشكال التنفير من الحضارة الغربية ووضع الجماعات العربية والاسلامية في موضع الحذر والخوف والهروب ٠٠ فقد انهالت البعثات التبشيرية ، وانهالت معها كل الوان التنديد بالمجمع الاسلامي والثقافة العربية ، وحملات التشكيك بالمقدسات والاراء والمعتقدات ، والتنفير من الأدب والتراث وابراز الصفحات السوداء من التاريخ وطمس الصفحات النقية وانكار الحقائق وتشويه النصوص واظهار العقيدة في غير حقائقها الجوهرية، وعرض سير الرجال : حياة رجالات العرب والاسلام من زاوية الاوهام والاساطير التي علقت بسيرتهم وكانت دوائر الاستشراق عونا على ذلك ، من حيث كان ينتظر ان تكون اداة منصفة ومراكز اضاءة وتنوير ٠٠ بل ان بعض المستشرقين الذين حاولوا انصاف العرب في بعض ما قالوه لم يتأخروا عن وصفهم بأنهم غزاة .. واعتبر بما كتبه غوستاف لبون في كتابه « حضارة العرب » ذلك انه لم يتردد في ان يصم العرب في كثير من صفحاته انهم غزاة .. على ما اضطر اليه من ابراز لحضارتهم واظهار لاثرها والنفاذ عن طريق التبشير كان له اسوا الآثار لانه اتصل بطبقات الناس ومجموعاتهم ولابس حياتهم اليومية في انفسهم وفي اولادهم في المستشفيات والمدارس وما اليها من النتائج الايجابية او الانسانية التي اعطاها ، لا يمكن ان تعدل ما كان من نتائجه السلبية على سير الحركة الحضارية بعامة في شرقنا، وعلى تقريب مسافة الخلف بين مجتمعاتنا وبين هذه الحضارة او بين ضمائرنا وروحنا وبين هذه الحضارة ٠٠ حتى يكون الاقبال عليها اقبالا لا يخالطه حذر منها ولا يداخله خوف او اشفاق ٠

3 ــ وقد كان مما عاق الحركات الاصلاحية وافسد نتائجها هذه الخصومات الحادة التي نشأت بين الدول الاجنبية في صلاتها بالجماعة العربية والجماعات الاسلامية وبصورة خاصة هذه الخصومات بين السياسات الفرنسية والانكليزية والروسية وعلى حين كان يفترض ان يكون هذا الخلاف بين هذه السياسات منفذا لتخلص الجماعات الاسلامية من هذا المكر السياسي العريض،

فان الذى كان من نتائج هذه الخصومات ان انصبت اثارها على هذه الكتل من الناس وقد تكون اطالت فى عمر الدولة العثمانية من حيث هى دولـة ، اما من حيث هى مجتمع انسانى فقد اسهمت فى تأخيره وتخلفه لانها استنزفت قواه ، وانه كان من ابـرز وسائلها ان تصطنع احدى هـذه الدول بعض الرؤساء او الامراء او الصدور او المتنفذين الاقويـاء ٠٠ وان تصطنع دولـة اخرى افرادا اخرين ثم يؤول ذلك الى صراع داخلى والى مقاتل وحروب تفنى فيها الجماعات قواها واموالها وتكسر وحدتها فـلا تجد بيـن يديها من قـوى الفكر والمـال ما يساعدها على ان تصلح شيئا من احوالها ٠

وليس هذا فحسب ٠ وانما وقعت الجماعات الاسلامية والعربية فى مواقف داخلية اليمة اذ ان هذه الصراعات اثارت عندها الشكوك برجالاتها وقياداتها فادى ذلك الى فقدان تماسكها والتماسك هـو الشرط الاول فى سلامـة البناء الاجتماعى وبالتالى فى تحركه نحو النهضة ٠

لقد كان استقطاب بعض الرجالات والاسر من مسالـك الدول الاجنبيـة فى صراعاتها السياسية واول ما يدل على ذلك ما كان من احداث الافغان فى القرن الماضى فقد وقع هذا القطر فريسة التنازع بين انكلترا وروسيا وانقسم الامراء الذين تعاقبوا على حكـم الانفـاق بين متابـع للانكليـز ومشايع للـروس ، ومحاول ان يقف بينهما باعتدال ٠٠ وفى حالات الصراع بين هؤلاء الامراء على الملك ، كثيرا ما كان يلجأ احدهم الى احدى هاتين الدوليتين حتمـا او نكايـة بخصمه او تحينا لفرصة انقضاض ، فيقيم فى الارض التى تمـد سلطانها عليها فيعيش فى رعاية روسيا مثلا اوفى رعاية انكلترا وتنفق عليه السنوات الطوال ليكون ركيزة لها فى المستقبل ٠

4 ـ والسياسة الاجنبية ، وهى تقف فى وجه هذا الشرق الاسلامى لم تكن متناقضة دائما وانما كانت تجد الطريق الى الالفة والتوافق والاجتماع حين تجد الطريق الى اقتسام الضحية والى الحيلولة بين هذا المجتمع العـربى الاسـلامى وبين التحرك ويمكن ان نذكر فى ذلك ما كان من حركة محمد على باشا وابنه ابراهيم باشا ، وهى حركة كان لها فى وجه من وجوهها معناها العربى ٠٠ وكان من الممكن ان ينتج عنها قيام دولة عربية كبيرة بعد ان قطع محمد على باشا فى مصر اشواطا فى طرق الحضارة والتقدم ٠٠ ولكن ذلـك اخاف هـذه الدول ودفعها فى الاتجاه المضاد ٠٠ فاذا هذه الجيوش المصرية تتوقف واذا هى تعود الى موطنها الاول واذا الصلح ينعقد بين الدولة الخديوية وبين آل عثمان ، واذا

كل ما كان كأن لم يكن لان هذه الدول الاجنبية لا تريد لهذه الجماعات العربية الاسلامية طريق النهضة ، ولا تريد لها ان تفلت من التخلف وانما تريدها ان تظل حبيسة الجهل تصارع مشاكلها الداخلية بعيدا عن معاودة طريقها الحضاري ٠

5 – ويبدو ان السياسة الاجنبية لم تكن لتغفل عن الصغيرة والكبيرة فى حياة هذه الشعوب والمحميات كانت لها عيونها النافذة واساليبها الواصدة ٠٠ انها لم تكن لتقتصر على اخراج دولة الخلافة ٠٠ او الدول الاسلامية الاخرى وارهاقها ، ولم تكن تحاول اضعافها فى المجال الدولى وحسب ٠٠ وانما كانت تمتد الى حياتها الداخلية فى نوع من التدخل الوقح والمباشر .. وكان لها من رجالها الذين تصطنعهم او تنشئهم ما يساعدها على ذلك ٠

ان مثل السفير الروسى اغنانيف مع المصلح الكبير مدحت باشا ابرز الامثلة على ذلك ٠٠ ولنترك لجرجي زيدان وهو من هنا ان يتحدث عن ذلك يقول زيدان عن مدحت باشا من كتاب : (تراجم مشاهير الشرق ج 2 ص 358) :

(وانتبه مدحت الى امر ذى بال كان سببا فى اكثر متاعب الدولة فى البلقان وذلك ان بعض البلغاريين كانوا يرسلون اولادهم للتخرج فى جامعات اوربا أو خركوف او كييف وكلها بلاد الروس فكانوا يتشربون حب الجنس السلاحى ويعودون لبث تلك الروح فى الاهالى فيثيرون التعصب الجنسى او الدينى فيعود ذلك بالقلاقل والمتاعب على الدولة فارتأى مدحت ان يتلافى ذلك بانشاء المدارس العالية فى الولاية نفسها بحيث يغنى الناس عن ارسال ابنائهم الى الخارج فضلا عن تآلف الشبان على اختلاف مذاهبهم اذا شبوا فى مدرسة واحدة وتربوا تربية واحدة ٠ ورفع بذلك لائحة للباب العالى وقسم النفقات اللازمة لهذا العمل الى نصفين النصف يؤخذ من فضلات الخراج فى الولاية والنصف الآخر يكتتب به الاهالى ٠

فلما وصلت هذه اللائحة الى الاستانة علم بها اغنانيف سفير روسيا هناك فقاومها بكل قوته لانها تخالف الترتيب الذى رتبه الروس لتحويل قلوب البلغاريين عن دولتهم وبذل جهوده فى ايغار صدر السلطان عبد العزيز على مدحت فاوهمه ان الخطة التى يتخذها مدحت فى الولايات تنافى سياسة الخليفة المطلقة وتؤول الى تشتت شمل المملكة العثمانية باستقلال كل ولاية بشؤونها فلم يصغ السلطان لوشايته فى بادىء الامر ولكنه دفعه الى غلطة وقعت فى لائحة نشرها مدحت باشا فى الجريدة الرسمية يطلب فيها تعيين

اعضاء مجلس الاهالى المشتركين مع الحكومة فى تدبير شؤون الولاية فسماهم « نوابا » ولم يغفل اغناتيف عن تنبيه ذهن السلطان الى ذلك فاقتنع بسوء عاقبة تلك البدع وابى المصادقة على طلب مدحت تجنبا للنفقة ولم يذكر السبب الحقيقى .

فذهبت اعمال مدحت فى سبيل الاصلاح ادراج الرياح ، وايد اصحاب اغناتيف استنهاض بعض العصابات فى البلقان للتعديات ونحوها ، فما احس مدحت الا وقد ظهرت عصابات فتكت بالمسلمين وقتلت اطفالا من الرعاة فنهض المسلمون لمثل هذا العمل والمسيحيون ، فركب مدحت بنفسه وقبض على بعض المتمردين من النصارى فوجد باستنطاقهم انهم رسل من جمعية السلاف فى بوخارست وفى كشفوا فحكم المجلس على الرؤساء بالاعدام وعلى الآخرين باحكام اخرى فانقضت الثورة وعادت السكينة .

على ان جرائد اوربا شددت النكير على تصرف القضاء العثمانى فى هذا السبيل ، وعدوا احكامه بربرية ونسبوها الى مدحت فبرأ نفسه .

لكنهم لم يعدموا وسيلة اخرى لنكاية وذلك ان سمع برسل بسرية قادمة من غلاتز الى بلغراد لدس دسائس واعداد مشاكل جديدة فقبض عليهم على ظهر باخرة نمساوية عند روستشوك وبعث بصورتهم الى قنصل النمسا وطلب اليه ان يأذن بفحص تذاكرهم واخذت الضابطة العثمانية فى تفتيشهم ومعها مندوب من القنصلية النمساوية فأطلق احد الرسل مسدسا على الضابطة فى قاعة السفينة فاجابهم العثمانيون والتحم الفريقان وانجلت الواقعة اخيرا عن القبض على اولئك الدساسين وقد جرحوا جراحا بليغة .

فكان لهذه الحادثة دوى فى أوربا واتخذ اغناتيف ذلك ذريعة لطلب اقالة مدحت فلم يفلح ، فاخذوا يسعون فى قتله سرا فأطلق عليه احدهم فى روستشوك رصاصة فأخطأته وحاول سربى قتله ففشل ، ولما قبض عليه وسئل عن سبب عمله قال : « ان اثنين من كبار السرب اغروه على ذلك فحوكم الرجل وعوقب .. »

ان تدبر هذا النص والوقوف عند جزئياته يضعنا امام حقائق خطيرة وتفاصيل مثيرة عن التدخل الاجنبى وعن اساليب هذا التدخل وعن تسربه الى مكاتب السلطات وأوراقه وعنه رصد حركات الاصلاح واتخاذ مختلف السبل الى اعاقتها ولو كان من هذا السبيل جرائم القتل واثارة الفتن الطائفية .

(يتبع)

بوغني

شعر: د. سامح درويش

نحن في (بوغني) (1) نفيق
يا رفاق الغربة المرة من هول الطريق
نلتقي فيها ، ونجتر حكايانا ،
ويحيينا — من الذكرى — بريق

شع في أعماقنا لحظة يأس ، وانهيار
آه كم كانت لنا في العمر آمال كبار
أرهقتنا، وخطانا ليس ينساها العثار
نحن نمضي في طريق مالنا فيها اختيار

تلهث الخطوة خلف الحلم في قلب قفار

أي جيل نحن يحيا عمره محض اضطرار ؟!

* * *

آه (بوغني) أي ضيق

حاصر النفس ، وغشاها ، ونفسي لا تطيق

عشت ، والدنيا لدى العشق ، والأحلام ، والألحان، والشعر الرقيق

فتزلت الآن في الغربة هاتيك المنازل
عاشقا يعرف أن الشق إصرار مقاتل
وعناد كعناد الصخر في أرض (القبايل) (2)

جئت يا (بوغني) وأيامي صراع متواصل

علني أسمع في واديك صوت المتفائل
يبعث الروح بأعماق فؤادي كي أحاول

* * *

شرخ الصمت العميق

---

(1) بوغني : مدينة في ولاية تيزي وزو بالجزائر .

(2) القبايل : سكان منطقة القبايل الكبرى بولاية تيزي وزو بالجزائر .

نغم يعشقه المجـد ، ويهواه الشروق
عن جهاد ، ودم ، أنقى من النور ـ
على هذى الربى ـ أمس ـ أريق
يـا صـدى أغنيـة لما تـزل فـى
(جرجره) (3)
تقهر الصمت، وتروى ذكريات عطره
هـا هنـا بالامس كان الموت يـرمى
شرره
وهنا الثورة كانت في الربى مستعره
أين يا (جرجرة) اليوم معانى المفخره
ورجال صدقوا الله فماتوا برره

* * *

همس القلب العشيق
ما الذى فيك يثير الشعر ، والحزن
العميق ؟
الجبال الشم ؟! والخضرة ،!.. والثلج
والحفرة الذىيذكى باعماقى الحريق ؟!
أم جمـال ضـج فى هـذى النهـود
....
وهى تزرى بشمـوخ القمـة العليـا
الأبيه
أم تواريخ بلادى، وهى في فك المنيه؟!
أم أمانينا التى كانت ومازالت عصيه؟
أم صـدى أيـامنـا الحلــوة فـى
(الاسكندريه) (4) ؟

أم أسى جيل وقد أضحى له اليـأس
هويه ؟

* * *

عز فى الدرب الرفيق
وأنا احمل في صدرى احاسيس غريق
ويدى تمتد كـى تلمس (بـوغني)
وتلاقى فى روابيها صديق
عاشقا جئت على صدرك أبكى وأريق
ادمعا حنت لأيام الصبا العذبالطليق
يوم كنا لا نرى الدنيا سـوى حلـم
أنيق
مرهقا جئت ، وما زلت على الـدرب
العتيق
أرقب الغاية ، والغاية في أفق سحيق
وزماني مجـدب ، لانبـت فيـه ،..
لا رحيق

* * *

لك يا (بوغني) أتوق
وشدى زيتونك الأخضر يسرى فى
العروق
عاشقا جئت ، على صـدرك أبكى ،
وألاقى فى روابيك صديق

د. سامح درويس
ـ الجزائر ـ

(3) جرجرة : جبل فى منطقة القبايل الكبرى ، تقع (بوغني) على سفحه .
(4) الاسكندرية : موطن الشاعر .

الشيخ اسماعيل التميمي

بقلم : د . جلول عزونه

1) مقدمــــة :

كان السيد بابر جوهنسن (Babea Johansen) مـن برلين الغربية المستشرق الوحيد الذى شارك فى شهـر ديسمبر 1979 فى الاحتفال بمرور 1300 سنة على بناء جامع الزيتونة ، وقد وقع هذا الاحتفال بتونس وكان موضوع محاضرته : **بين عالم زيتوني والوهابية** ، تحدث فيها عن رد الشيخ اسماعيل التميمي على رسائل محمد بن عبد الوهاب . وقد علق أحد المشائخ من احدى البلدان الاسلامية على المحاضرة بقولـه : « انى لا أحب المستشرقيـن لانهـم لا يبحثون الا فـى الخلافـات الاسلاميـة ، يريدون بذلـك ابـراز تصارعنـا وتصادمنـا ! » .

وان كانت نية هذا الشيخ حسنة لا شك فى ذلك ، وهى المحافظـة عـلى الوحدة الاسلامية ، فهو لم يفهم بعد بأن التقدم ــ فى اى ميدان كان ــ لا يمكن أن يحصل الا بعد الجدل والمجادلة وبعد التصادم والتصارع وأن تقدمنا الآن ــ أو بالاحرى بدء نهضتنا ــ لم يبدأ الا بفضل محمد بن عبد الوهاب وأمثـالـه وبفضل مناهضيه من المحافظين أمثال اسماعيل التميمي وغيره ، اى بالخصام الازلى بين المحافظين والمجددين ، وتلك سنة الحياة .

وقد أراد مستشرقنا لفت نظر الدارسين الى رسالة اسماعيل التميمي علها تدرس بعمق وعلها تنشر من جديد نشرا علميا محققا حسب اساليب التحقيق المعاصرة ــ وذلك لان هذه الرسالة تعد **بداية الجدل** بين الوهابية وبين فقهاء السنة بالشمال الافريقى بل منطلق هذا الجدل فى العالم الاسلامى بصفة عامة وتكون بذلك منطلق النهضة الفكرية المعاصرة فى العالم العربى والاسلامى .

وقد أعلمت هذا المستشرق بأنى من المهتمين بجمع مؤلفات الشيخ اسماعيل التميمي ، وأنى تعرضت اليه فى محاضرتى التى ألقيتها بجامع النخلـة بمنزل

تميم بتاريخ 15 رمضان 1399 هـ (8 أوت 1979 م) تحت عنوان : **أعلام من الوطني القبلي** ، واعلمته كذلك باهتمام الدكتور الهادى حمودة الغزى الذى ألقى محاضرة بقليبية فى الربيع الماضى وتعرض فيها الى شخصيات من الوطن القبلي منهم اسماعيل التميمى ، وقد أعرب المستشرق « بابر » عن سروره لانه وجد من يهتم مثله بهذه الشخصية .

وفى هذا المقال سأعرض بايجاز **حياة وتاليف** اسماعيل التميمى على أمل العودة الى هذه الشخصية مرة أخرى لزيادة الدراسة والتعمق فى تآليفه وابراز قيمتها مضيفا هكذا الى ماقاله المستشرق بابر بعض المعلومات التى لم يتعرض اليها لانه خصص محاضرته للحديث عن تأليف وحيد لاسماعيل التميمى فى حين ان لـه تآليف أخرى لا تقل اهميـة عن رده على محمد بن عبد الوهاب .

2) حيـاة اسماعيل التميمى :

1) ان اول من تحدث عن اسماعيل التميمى هو تلميذه المؤرخ أحمد بن أبى الضياف فى كتابه الكبير :**اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان** . وذلك **بالجزء الثالث** منه (1) ، فقد تحدث عن استرجاع الحرمين الشريفين من الثائر الوهابى وقدوم رسالة منه الى تونس (ص 60 **الطبعة الاولى**) وجواب الشيخ المحجوب للوهابى بتكليف من الباى (الى ص 75 نفس **الطبعة**) .

وقد أورد ابن أبى الضياف رسالة المحجوب كاملة بينما اكتفى بذكر حبر رسالة اسماعيل التميمى (ص 63) فى بضع أسطر فقط (2) وقد يرى بعضهم أن فى هذا ظلما لاسماعيل التميمى لكونه **آفاقيا** .. ولكون منصب المحجوب أكبر فى ذلك الوقت من المنصب الذى يحتله اسماعيل التميمى ، ولكن فى هذا الرأى تعسف كبير اذا ما عرفنا أن رسالة المحجوب لا تتجاوز صفحاتها أصابع اليد الواحدة بينما رسالة التميمى أطول من ذلك بكثير اذ تكاد تبلغ 100 (مائة) صفحة .

---

(1) الطبعة الاولى : ص 60 الى ص 75 ــ **أما الطبعة الثانية** ــ الدار التونسية للنشر 1979 من صفحة 86 الى ص 238 .

(2) ص 86 ــ الجزء الثالث ، الطبعة الثانية .

ولد اسماعيل التميمي بمنزل تميم فى عائلة : **باشا** وهى عائلة قد تكون، كما يوحى بذلك اسمها — من أصل تركى ، ولعل هذا مما يفسر وعى هذه العائلة فى ذلك التاريخ (أواسط القرن الثامن عشر) وبعثها ابنها مبكرا الى تونس للدراسة ، واسماعيل التميمي يكاد يكون الوحيد من جيله الذى قصد جامع الزيتونة فى ذلك التاريخ . ولكن هناك شخصين أثرا لا محالة فى تكوينه وهما :

أ) جده أحمد التميمي ، أبو العباس أحمد المدعو حميدة التميمي . وكان متقدما « للشهادة على مصروف دار الباى بالقصبة » (3) وقد تمهر به فى التوثيق حفيده اسماعيل التميمي . توفى هذا الجد فى نفس سنة وفاة حفيده . أفريل 1832 — اى قبل وفاة اسماعيل بسبعة أشهر تقريبا (ابن ابى الضياف ، جزء (3) ، ص 237 و 238) .

ب) **أحمد** بن سلمان أستاذه وأصيل قرية الصقالبة من **قبيلة المعاويين** ودفين منزل تميم ، وكان مشتهرا بالصلاح والولاية (4) الذى قد يكون نصحه بالالتحاق بجامع الزيتونة بعد مبادىء التعليم ببلدته « وأمره بالهجرة الى تونس » (**شجرة النور الزكية** ص 370) .

اذن التحق اسماعيل التميمي بتونس وهو صغير السن ونزل بالمدرسة الحسينية وتتلمذ على أساتذة كثيرين منهم قاسم المحجوب والشحمى وصالح الكواش رئيس المدرسة المنتصرية وقد يكون لهذا الاخير تأثير كبير على اسماعيل التميمي ! وقد يكون تعرف عليه زمن محنته بمنزل تميم بالذات ، اذ نفى صالح الكواش مدة شهر كامل بمنزل تميم على اثر وشاية به لدى الباى (5) وبحياة هذا العلم تشابه مع حياة اسماعيل التميمي لان هذا الاخير سيعرف هو نفسه وبدوره العزل والنفى بماطر على اثر وشاية به لدى الباى كذلك ، وذلك شىء عادى لدى ملوك

---

(3) ابن أبى الضياف ، الجزء السابع — **التراجم** — ص 163 عدد 191 ، ولعل هذا مما يؤكد انتساب هذه العائلة لاصل تركى نظرا لهذا المنصب الذى تولاه الجد .

(4) ابن أبى الضياف ، الجزء السابع ، **التراجم** عدد 134 ص 125 ، طبع كتابة الدولة للشؤون الثقافية والارشاد — تونس 1964 .

(5) ترجمته بالجزء السابع لابن أبى الضياف ص 44 .

الاطلاق ! (6) وقد اتهم « بأنه يترقب زوال الدولة » حسب ما أورد ذلك الشيخ محمد مخلوف فى كتابه **شجرة النور الزكية** .

وقد اشتهر اسماعيل التميمى كثيرا فى عهده وتقلد مناصب عليا فى الدولة وكان مدرسا ممتازا تخرج عليه كثيرون اشهرهم ابن ابى الضياف وابراهيم الرياحى (مات بالكوليرا عام 1850 م) .

وكان خطيب العقود الملكية (أبناء الباى وبناته) وأصهاره أمثال الوزير يوسف صاحب الطابع (7) .

وتولى اسماعيل التميمى الفتوى ثلاث مرات ، الاولى لمدة أشهر فى أفريل 1815 والثانية فى سبتمبر 1819 م ومرة ثالثة وذلك اثر وفاة اصحاب تلك المناصب مثل وفاة أبى محمد حسن بن عبد الكبير الشريف فى طاعون 1234 هـ الى ان ترأس الفتوى بالمذهب المالكى سنة 1828 م (8) .

فصار **هكذا أكبر مختص فى الافتاء والتوثيق فى عصره** وأشع بذلك الى أن صار أستاذ اهم الاساتذة بالزيتونة .

وفى الوطن القبلى كان نجاحه العلمى حافزا للكثيرين للاقبال على العلم أذكر بعضهم هنا بايجاز وبالخصوص : محمد التميمى أصيل منزل تميم الذى كان ملازما لاسماعيل التميمى **ودرس بجامع الزيتونة** وقد امتحن بالنفى كذلك فى محنة اسماعيل التميمى وسرح معه ، توفى سنة 1846 ــ 1847 م (9) وأذكر أيضا عبد الله التميمى (10) المتوفى سنة 1800 م الخ ...

---

(6) ابن أبى الضياف ، طبعة 1979 الجزء **الثالث** : ص 170 : محنة الشيخ التميمى وسببها وص 171 : سراح الشيخ التميمى واقباله على التدريس بعلو داره .

(7) ابن أبى الضياف ــ جزء 3 ــ ص 163 و 202 .

(8) المصدر السابق ص 146 و 168 و 188 و 207 . ولزيادة الافادة حول هذا المذهب انظر كتاب المقدسى : **أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم** ص 236 و 237 : دخول المالكية لتونس .

(9) ابن أبى الضياف جزء 8 ــ ص 65 ترجمة عدد 277 .

(10) المصدر السابق ــ جزء 7 ص 36 ترجمة عدد 32 .

ولمزيد التفاصيل فاني أشير لترجمة اسماعيل التميمي وقد امتدت على أربع **صفحات** كاملة (II) وقد توفي اسماعيل التميمي في 10 أكتوبر سنة 1832 م وابن أبي الضياف **مصدر مباشر** اذ كثيرا ما يقول عن اسماعيل التميمي : « **سمعت ذلك منه** » .

2) واما المترجم الثاني لعلامتنا فهو الشيخ محمد مخلوف في كتابه : **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** طبع القاهرة سنة 1349 هـ . 1350 هـ. (جزآن) .

وقد ذكر أولا أساتذة ومشائخ اسماعيل التميمي وهم كثرة ، وسأقتصر على ذكر بعضهم فقط .

أولهم : عمر بن الشيخ قاسم المحجوب أبو حفص وكان قاضي الجماعة (ص 366 ـ ترجمة عدد 1459) . وقد كتب **رسالة في الرد على الوهابي** مثل اسماعيل التميمي ـ توفي موفى محرم سنة 1222 هـ.

ثانيهم : أبو العباس أحمد بن سلمان « من زاوية الصقالبة بدخلة المعاويين الشيخ العامل الولي العارف بالله الكامل ... كان معتقد الخاصة والعامة » وقد توفي سنة 1237 هـ ، وقد أشرت اليه آنفا وأشرت الى تأثيره على اسماعيل التميمي (ص 369 ـ **ترجمة عدد** 1470) ومن بركته أن والد ابن أبي الضياف الكاتب الخاص ليوسف صاحب الطابع كان يأتيه كل سنة بمال وعطايا لمنزل تميم ، فما كان يبيت شيئا منه ببيته بل يتصدق به كله !

ثالثهم : صالح بن حسين الكواش ـ أبو الفلاح (ص 365 ـ **ترجمة عدد** : 1454) ولد سنة 1137 وتوفي في شوال سنة 1218 ـ وقد أشرت آنفا الى تأثير هذا الشيخ في تلميذه اسماعيل التميمي وكيف أن صفته التي اشتهر بها وهي **صراحته وشجاعته في الحق** انتقلت كلها أو جلها الى تلميذه وكيف أن الاستاذ وتلميذه عرفا النفي والعزل .

وكانا يشتركان في صفة أخرى وهي الآفافية . وكان الكواش قد فر من قبل من سطوة علي باشا وتوجه لطرابلس « ومنها لازمير ومنها للاستانة » حيث نال الحظوة والشهرة ، ورجع الى تونس بطلب من الباي محمد الرشيد ابن حسين

(II) المصدر السابق جزء 8 ـ ص 11 الى ص 14 ـ ترجمة عدد 197 .

بن علي – وعرف محنته زمن حكم علي باي ولا يزال أبناء الزيتونة الى يومنا هذا يرددون شجاعة هذا الشيخ من ذلك ما رواه لي امام منزل تميم الحالي الشيخ محسن بوعزيز من اعتراض صالح الكواش على طريقة أداء الآذان بجامع الزيتونة حيث كان المؤذن يترنم بالآذان ويطيل الترديد فنهى الكواش عن ذلك فقيل له : إن هذه الطريقة هي طريقة العائلة المالكة ، فسب أبناء العائلة المالكة ، فوشى به لديها فحمل الى حمودة باي ! وعرف الكواش الامر بفطنته ، فما ان دخل على الباي حتى بدأ يترنم باسمه على طريقة أداء الآذان التي عارضها : يا سيدي ... حموده ... » وتعجب الباي من جرأة الشيخ عليه وتحقيره له بالعبث باسم « فخامته » ، فانكر عليه الباي ذلك وكان جواب الكواش : « أرأيت كيف تغضب على العبث باسمك وأنت مخلوق فكيف لا أغضب أنا على العبث باسم الخالق عز وجل ! ؟ » .

وقد رويت لي قصة غيرها عن صالح الكواش نفسه مفادها أن بعض العامة أتاه وهو ينزل درج جامع الزيتونة وسأله : هل كان محمد صلى الله عليه وسلم مالكيا أو حنفي المذهب ؟ فانبرى صالح الكواش يسب العائلة المالكة بأعلى صوته لسياستها التعليمية التي لا ترمي الا لترك الجهل يعم الرعايا ...

وقد يكون وشي به أيضا هذه المرة ، وقد تكون هذه الحادثة أو الاولى سبب نفيه لمنزل تميم ولكن لم يتعرض لا ابن أبي الضياف ولا محمد بن محمد مخلوف الى شيء من هذا (*) .

وكان صالح الكواش يقول الشعر وبعضه مذكور في التاريخ الباشي .

ثم يذكر لنا محمد مخلوف بعض تلاميذ اسماعيل التميمي ومنهم : أبو عبد الله محمد بن سليمان المناعي الذي رحل لفاس وأخذ مباشرة عن الشيخ احمد التيجاني والمناعي هذا أستاذ ابن أبي الضياف وهو صاحب الرسالة التي حققها صديقنا أحمد الطويلي (ص 370 – ترجمة عدد 1476) .

وأحمد التيجاني (12) هذا هو المتصوف صاحب الطريقة التيجانية والذي ينهى عن زيارة القبور – ونرى هنا بعض تاثير محمد بن عبد الوهاب الذي كان

(*) انظر ترجمة صالح الكواش وابنه محمد في كتاب محمد النيفر : **عنوان الاديب** .. طبع تونس 1351 هـ من ص 64 الى 71 .

(12) دفين فاس ، ولد سنة 1150 – وتوفي سنة 1230 هـ انظر محمد مخلوف ص 378 . ترجمة عدد 1513 .

يحرم زيارة القبور ويكفر زائريها ! وقد مر التيجاني بتونس وهو فى طريقه للحج واقام بها مدة . وقد اخذ عن التيجاني ايضا الشيخ ابراهيم الرياحي وذلك بفاس حين قدم لها سفيرا والرياحي هذا أحد تلاميذ اسماعيل التميمي أيضا . ومن تلاميذ التميمي أذكر ابا المحاسن بن ذى النون الباجي المتوفى سنة 1253 هـ وكذلك أبا عبد الله محمد بن عبد الستار البحرى التونسى القاضى المتوفى سنة 1254 هـ . وكذلك الشيخ محمد بن أحمد بن الخوجة (ص 471) وأبو العباس أحمد منة الله (ص 459) وصالح الغنوشى السوسى (توفى سنة 1276) ويعتبر محمد مخلوف نفسه تلميذا لاسماعيل التميمي فى روايته للاسانيد التى يرجعها طبقة الى التميمي والى من قبله من العلماء (ص 440 — ترجمة عدد : 1725 وكذلك ص 486) (13) ويرى محمد مخلوف **ان طريقة اسماعيل التميمي ومنهجه العلمي** قد تركا آثارهما الى اليوم فى مشائخ الزيتونة من أمثال أبى عبد الله محمد الطاهر بن محمد الشاذلى بن عبد القادر بن محمد بن عاشور الذى « **لا يذكر فقها الا بدليله** يحذو فى ذلك حذو العلامة أبى الفدا اسماعيل التميمي » (ص 392 — ترجمة عدد 1565) وهذه الملحوظة مهمة جدا اذ تعطينا الميزة الاساسية لاسماعيل التميمي وهى **خلقه مدرسة فكرية فى تونس لا تعتمد الا على الدليل حتى فى الميدان الفقهى** الذى يكثر فيه النقل لا الاعتماد على العقل ، ولكن يبقى أن نتثبت هل ان اسماعيل التميمي نجح فى تطبيق مبدئه أم لا فيما تعاطاه من مسائل فقهية ؟ وعلى كل وقبل بحث هذه النقطة لابد أن نقر بأن التميمي اشتهر عند معاصريه وحتى بعد مماته بزمن طويل ، **بانه من المجتهدين فى الدين** ، لذلك ترى مخلوف يؤكد : « الامام الثبت ، العلامة ، العمدة ، الفهامة ، **المحقق النظار ، الاخذ ماخذ المجتهدين الاخيار فى تعليل المسائل الفقهية** بمدارك أصولها الشرعية ... » ولهذا اهتم بتسجيل فتاواه الكثيرة وسنرجع فى حديثنا عن آثار اسماعيل التميمي **المخطوطة** للحديث عن **فتاوى التميمي وقيمتها التاريخية والوثائقية** ، وكلنا نشعر بقيمة هذا النوع من التراث الذى لم يزل بكرا ولم يدرس الا قليلا ،

---

(13) أما ترجمة ابراهيم الرياحي فهى موجودة ص 386 ، عدد : 1555 من كتاب مخلوف ويذكر لنا أن الرياحي ألف رسالة فى الرد على المنكرين على الطريقة التجانية من أمثال عالم مصر وصالحها الشيخ محمد النميلي — التونسى الاصل صاحب الرسالة **الصوارم والاسنة** ونرى هنا أيضا تأثير اسماعيل التميمي بطريقته فى الرد على أحد تلاميذه الموهوبين .

وساشير هنا الى دراسة الاستاذ سعد غراب : **كتب الفتاوى وقيمتها الاجتماعية مثال نوازل البرزلي** الذى نشره أخيرا فى **حوليات الجامعة التونسية** (14) ورغم تضارب آراء بعض أهل الاختصاص حول **اهمية الكتب الدينية فى دراسة الحياة الاقتصادية والاجتماعية** من مستشرقين وتونسيين فان مما لاشك فيه أن هناك ثغرات كبيرة فى هذين الميدانين فى كتب التاريخ الاسلامى فى القرون الماضية وأنه لا يمكن سدها الا بطرق عديدة منها كتب الفتاوى **ولعلها أهمها.**
وقد استعرض سعد غراب عددا من كتب الفتاوى المالكية ، وهذه الفتاوى تعطينا صورة واقعية عن المشاكل الاجتماعية وكيف وقع حلها من طرف أهل الدين ومن طرف العوام ، ومن المواضيع المطروقة : صلات المسلمين بأهل الذمة نظرة بعض الشعوب بعضها لبعض ، العلاقة بين المدينة والبادية وموقف الفقهاء من الاعراب . أى اهل الارياف ومن اصحاب المهن ، تدهور القيم الدينية من حج وصوم وزواج متعة ، وظاهرة التصوف .. الخ .

ونحن مع سعد غراب الذى اوصى « بضرورة اعداد فهارس أغراضية للمواضيع المتناثرة فى كتب الفتاوى لتعين الباحثين فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات الاسلامية » .

والتميمى نظرا لاجتهاده ، « كان اليه المفزع فى الفتوى ومشكلات المسائل » (15) ونظرا لشجاعته ، كان التميمى يتمتع بشعبية كبيرة ويظهر هذا فى اقبال الناس عليه بالخصوص بعد نفيه وعزله ، وذلك بعلو داره يقول محمد مخلوف :

« ومكث بداره يقرىء **وانجذبت القلوب لمغناطيس علومه** واقتطفوا من رياض منظومه ومفهومه وقابله الخاص والعام **باجلال وتعظيم لم يعهد أيام الولاية** فكان كما قيل :

ان الامير هو الذى	يضحى أميرا بعد عزله
ان زال سلطان الولا	ية فهو فى سلطان فضله

---

(14) عدد 16 ـ سنة 1978 ، ص 280 ، انظر عرضا لذلك بقلم : **أحمد الحمرونى** جريدة **بلادى** ، 5 نوفمبر 1979 ص 22 .

(15) محمد مخلوف : **شجرة النور الزكية** ص 370 ـ ترجمة عدد 1477 .

لذلك لا يمكن أن نتسرع أبدا فى حكمنا على اسماعيل التميمى **فنحمله** هو بالخصوص ووحده **تبعة تاخر دخول الاصلاح الدينى لتونس** كما ذهب لذلك الاستاذ محمد العروسى المطوى فى حديثه بالاذاعة التونسية يوم 4 أكتوبر 1976 ، وذلك لما عرض لدولة حمودة باشا معتمدا بالخصوص على كتاب ابن أبى الضياف (16) ، فقد تعرض المطوى لدور محمد بن عبد الوهاب الاصلاحى والى بلوغ صداه الى تونس وكيف كلف حمودة باشا اسماعيل التميمى بالرد على ابن عبد الوهاب فكتب رسالته ... **المنح الالاهية فى الرد على الضلالة الوهابية ..** واستنتج العروسى المطوى أنه يفهم التحامل والبعد عن الموضوعية، انطلاقا فقط من عنوان الرسالة ! وكيف أن محمد بن عبد الوهاب لم يفهم فى وقته ففات تونس الاصلاح والتفتح الدينى والذهنى بدافع تعصب امثال اسماعيل التميمى ضد عبد الوهاب .. وستتأخر الدعوة الاصلاحية ولن تبلغ تونس الا مع خير الدين باشا .. وذلك بعد زمن طويل يقدر بنصف قرن على الاقل ..

وكلام المطوى صحيح فى أغلبه ولكنى أشك أن المطوى قرأ رسالة التميمى ! ونحن نعرف أن أى اصلاح لابد وأن يجد معارضة وخصوصا من أصحاب السلطة والمناصب والمصالح والتميمى كان يشغل احدى المناصب العليا فى البلاد ، ولكن مع هذا فان التميمى لا يمكن تحميله وحده هذه المسؤولية الثقيلة **وانما هو رمز جيل كامل حاول مع محافظته أن يغير أشياء** ويظهر ذلك فى اضطهاد التميمى مدة ما ثم فى طريقته التى تعتمد الدليل بجانب اعتمادها النقل وهو اذن **حلقة وصل بين جيلين** ، مصلح بالنسبة للجيل الذى سبقه ولكنه أقل ثورية بالنسبة لمحمد بن عبد الوهاب وللمصلحين الذين سيأتون بعده أمثال خير الدين وغيره ...

---

(16) كذلك ذهب الاستاذ خليفة شاطر فى أحاديثه الاسبوعية خلال شهر نوفمبر وديسمبر 1979 بالاذاعة التونسية فى حين يذكر ابن أبى الضياف أستاذه التميمى بكل خير « يد أولى وسعة اطلاع » وان عرض ابن أبى الضياف عن الاستشهاد برسالة التميمى مخيرا الاستشهاد برسالة عمر المحجوب فذلك لقصر الثانية وطول الاولى كما ذكرت . ولا أدرى هل قرأ المطوى وشاطر رسالة التميمى حتى يحكما ضده أو عليه !؟

اقل من هذا فلا بد من جدية أكثر في اطلاق الاحكام وتثبت وتروى كما فعل المستشرق بابر في المحاضرة التي أشرت اليها في اول هذا الفصل (17) والتي خصها للحديث عن رسالة التميمي : **المنح الالاهية في الرد على الضلالة الوهابية** التي طبعت بالمطبعة التونسية سنة 1328 هـ (نهج سوق البلاط عدد 57 — تونس) الموافق لسنة 1910 م (18) وقد ذكر هذه الرسالة مستشرقون آخرون ولكن بابر — رغم تواضعه العلمي — قد كشف عن جوانب عديدة ايجابية لهذه الرسالة .

وقد بدأ محاضرته بتبيان خطأ وقع فيه ابن أبي الضياف وقال : إن الرسالة رد على رسالة ابن عبد الوهاب المسماة «**كشف الشبهات**» وان ما يفهم من كلام

---

(17) لمزيد الاطلاع على هذا الموضوع لابد من الرجوع الى : أ) مقال محمد بن عبد الوهاب الوهابية بالموسوعة الاسلامية Encyclopédie de l'Islam ب) الشاذلي بن صالح الذى درس رسالة اسماعيل التميمي **في الخلو ووجوهه عند المصريين والمغاربة** . ج) **لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب** تحقيق الدكتور : مصطفى أبو حاكمة — بيروت 1967 . د) **انتشار الدعوة الوهابية في العالم الاسلامي** مقال بقلم رابح لطفي جمعة — مجلة **الفيصل** عدد 15 اوت ، سبتمبر 1978 ، ص 80 الى ص 82 .

ويذكرها أن محمد بن عبد الوهاب بعث برسالة الى شيخ الركب المغربي في الحج ، شرح فيها ما لبس على الناس من صور الشرك الظاهر والخفي ويتحدث في هذا المقال أيضا عن الداعية الشيخ دان فوديو أحد أبناء قبيلة الفودا في السودان الغربي ، سنوات 1802و1804. وقد أقام سلطنة سوكوتو (النيجر الادنى) وقد دامت قرنا كاملا . هـ) مقال لعبد الحجاني **الحركة الاصلاحية بالمغرب** مجلة **الثقافة الجديدة** (المغرب الاقصى) عدد 5 و 6 . وفيه يتحدث عن المولى سليمان وموقفه من الوهابية ، وهذا المولى هو الذى قصده ابراهيم الرياحي ، تلميذ اسماعيل التميمي كسفير لحمودة باشا سنة 1218 م ، وقد امتدح مقصوده . و) ألف جاك بارك كتابا بعنوان : **بحث في المنهج القضائي المغربي** — الرباط سنة 1944 (بالفرنسية) وهذا الكتاب يعيننا على دراسة المنهج القضائي في تونس في القرن التاسع عشر المسيحي وكذلك على دراسة الحالة الاجتماعية والاجرام في نفس الفترة كما يمكن الاستعانة به لدراسة فتاوى اسماعيل التميمي .

التميمي هو اطلاعه **على رسالتين** لخصمه على أقل تقدير ، وانه يعرف آراء خصمه بصفة دقيقة ، وبعد أن نساءل عن **كيفية وصول رسالة بن عبد الوهاب لتونس** وضرورة تدقيق هذه المسالة وبعد البحث حول **تاريخ كتابة هذه الرسالة** فبين أنها كتبت ما بين 1218 و 1222 هـ وهما تاريخ وقوع مكة مرتين بيد السعوديين وأن الرسالة كتبت لا محالة قبل سنة 1229 هـ وهو تاريخ دخول جيش المصريين للحجاز لأن التميمي يتحدث عن دخول الحجاج لمكة ، وبعد الاشارة الى ضرورة تدقيق هذه المسألة يختم هذا القسم الاول من المحاضرة بتبيين قيمة الزيتونة كمركز علمي وديني في العالم الاسلامي مما جعل السعوديين يخصونها برسائل ابن عبد الوهاب مثل بقية المراكز الحية الاخرى كدمشق وفاس الخ ...

ثم انتقل المحاضر للحديث عن موضوع الرسالة وهو توجه المسلمين لزيارة قبور الاولياء والتوسط بهم وكيف أن بن عبد الوهاب يعتبر **هذا العمل كفرا وخروجا عن الدين** وأن الشفاعة لا تطلب الا من الله فقط . وأنه **لامجال للوسائط بين الله وبين المسلم** وأن العقل يعترف بوحدانية الله.وأن **زيارة الاولياء ترك للتوحيد** وترك لمبدأ الاخلاص لله واشراك كشرك الجاهلية .

ثم يبين بابر جوهانسن أن لعبد الوهاب أبعاد عديدة بعد **فقهي وأصولي وبعد نفسي وهذا** يتمثل في خلوص النفس لله ولكن التميمي لا يرى أهمية العامل النفسي بل يرى فساد القياس النفسي عند خصمه ، فالعبادة عنده ليست اصطلاحا لغويا فقط بل هي اصطلاح شرعي **وأن النية هي اهم عامل** لارتباطها بالعمل وبالتالي فهي التي تحدد طبيعة العبادة وأن الكفر بالنسبة للتميمي لا يكون الا في العمل المتوجه لغير الله وهو اذن يخرج زيارة القبور من العبادات ويدخلها باب المعاملات ، وبعد ان **يقارن منهاج الخصمين في المجادلة ،** وبعد أن يقارن مواقف التميمي وحججه بمواقف المتصوفين وحجج قاسم المحجوب وكيف أن التميمي كان يعيش في تونس حيث للطرق وللزوايا نفوذ وكيف أنه هو نفسه كانت له محبة في اهل الزهد مما جعله يقول مثل غيره : ان الله ينفع بالاولياء في الدنيا وينفع بهم في الآخرة . يبين مستشرقنا أن

(18) لقد ألف ابن نيران الفاسي ردا كذلك على محمد بن عبد الوهاب ـ ورده موجود مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس وسنرجع لهذا الاثر عند حديثنا عن مخطوطات اسماعيل التميمي .

التميمي رغم هذا فقيه وأدواته اذن تختلف عن أدوات المتصوفين ... وينهي المحاضر دراسته باستنتاجات منها :

أ) وحدة الحياة الدينية والفكرية في العالم الاسلامي قبل عهد الاستعمار المباشر،فما ان يظهر شيء في الشرق الا ويردد صداه ويجاوبه المغرب الاسلامي.

ب) بدأ الجدل بين السلفية والمحافظة في ربوع تونس مبكرا .

ج) ضرورة مرور التجديد الديني بجامع الزيتونة ، ولكن رغم ما لدينا من معلومات فان ثغرات عديدة تبقى عند الحديث عن الجدل بين الوهابية وبين الزيتونة ، ولا بد اذن من نشر اكبر عدد ممكن من الوثائق حتى نفهم الحياة الثقافية بصفة أدق في القرن الـ 19 م . وحتى نفهم احسن مواقف جامع الزيتونة من الحركات الاسلامية التجديدية ومن حركات التصوف .

3) خاتمـــــة :

وهكذا تظهر قيمة دراسة مستشرقنا بابرجوهانسن وقيمتها **تبدو لي بالخصوص في** اشاراتها للثغرات التي يجب على الباحثين سدها حتى يكتمل **فهمنا وتصورنا** لتلك الفترة الحاسمة من انطلاق النهضة الاسلامية العربية المعاصرة . ولابد من دراسة نقدية وتحقيق لرسالة اسماعيل التميمي واعادة نشرها لانها تعد في باب **المخطوط** نظرا لندرة نسخها (19) **واما آثاره المطبوعة الاخرى فهي قليلة .**

أ) **رسالة في الخلو ووجوهه عند المصريين والمغاربة** وهي بضع صفحات طبع المطبعة الرسمية سنة 1316 هـ وهي تضم مجموع **رسائل وفتاوي** وهي اول الرسائل (20) .

ب) **تراجم ائمة جامع الزيتونة** ، وقد طبع هذا ضمن تاريخ ابن ابي الضياف الذي اقتبسه بحرفه عن استاذه وضمنه مؤلفه الطويل وهو يوجد **بالجزء السابع من ص 61 الى ص 69 من كتاب : اتحاف اهل الزمان أما آثاره المخطوطة** فكثيرة وسنرجع اليها ونخصص لها مقالا لنحصرها ونضبطها وندل على أماكنها .

ونختم هذا الفصل بايراد فقره من كتاب **رسائل احمد القبجي القليبي** حيث ذكر وفاة اسماعيل التميمي وهو مما يدل على قيمة الرجل واتصال القليبي

---

(19) توجد منها **اربع نسخ مطبوعة** بالمكتبة الوطنية بتونس .

(20) توجد منها كذلك **اربع نسخ مطبوعة** بالمكتبة الوطنية بتونس .

بـه (21) يقول القليبي في رسالة بتاريخ أواخر جمادى الاولى 1248 هـ (ص138) « أما نحن يا أخي فلازلنا بقليبية بأويمات قلائل ان شاء الله متوجهون **للمحروسة تونس لتعزية اهل الشيخ سيدى اسماعيل التميمي** فيه رحمـه الله . وتهنئـة الشيخ ابراهيم الرياحي ابقاه الله بخطة شيخ الاسلام ، يكون ذلـك معلـوم السيادة ... »

ولابد أن القليبي كان سيعزى ابنة الابن الوحيد الذى أنجبـه اسماعيـل التميمي والمسمى عليا ، والذى توفي في حياة ابيه ـ وهذه الابنة ـ اى حفيدة اسماعيل التميمي ـ والمسماة عائشة ، توفيت حسب التقريب سنة 1932 او 1933 ، وقد تركت تونس وانتقلت للعيش بمنزل تميم ، حيث توفيت بدون أن تترك عقبا ، وهكذا انطفأ غصن اسماعيل التميمي الا ما تركه من آثار مخطوطة ومطبوعة تشهد له بطول باعه وعلو همته . وقد ربت عائشة المذكورة محمد بن علي النوالي والبشير النوالي ابنه حسبما اعلمنى بذلك هذا الاخير .

وقد كان لاسماعيل التميمي اشعاع في عصره تعدى حدود المملكةالتونسية فبجانب مكانته لابن السعود ولمحمد بن عبد الوهاب فقد كانت له مراسلات مع بايات عهده مع حسين باى الثاني ومع حمودة باشا ومع قضاة المملكـة انذاك ومع سيدى احمد بن سلمان ، استاذه ومع علماء من تركيا والمغرب والجزائر ومن هذا البلد الاخير أذكر أحمد بن عمار الجزائرى (أبو العباس) مفتي المالكية بالجزائر وصاحب الرحلة المسماة : **نحلة اللبيب باخبار الرحلة الى الحبيب :** وفيها تحدث عن سفرة قام بها الى الحجاز سنة 1166 ، وله موشحة في مـدح الرسول اوردها له الدكتور عباس الجرارى في كتابه : **موشحات مغربية** (22) وقد رد عليه التميمي على رسالة له **في الوقف** .

والتميمي رغم محافظته واعتماده النقل ، فهو يعد مجتهدا ولـو نسبيا في نظرنا ولكنه كان يعتبر امام المجتهدين في زمنه .

جلـول عـزونـه

---

(21) **رسائل احمد القليبي** : بقلم علي مصطفى المصراتي طبع الدار العربيـة للكتاب 1976 (ص 31 و 188 : ذكر اسم اسماعيـل التميمي) وانظـر بالخصوص ص 138 حيث نص الرسالة التى تعنينا .

(22) طبع الدار البيضاء 1972 ـ ص 107 و 108 انظر كذلـك كتاب الدكتـور الهادي حمودة الغزي : **الأدب التونسي في العهد الحسيني** ، الشعر وقد ذكر فيه عرضا اسماعيل التميمي .

فاكهـة وأبـّا...

كتابة : عبد الرؤوف الخنيسي

إلى صديقى مصطفى القصـري
امتاعـا ومـآنسة .

عندما اقبلت رفافـة القوام
رافلـةً
كان مقص الجنّان
يغتـّالُ الأعشـابْ
ليتوسّـدَ جسَـدُها الملـكوتَ
ارضَ الله الحلال

* * *

أقدَمـْتْ وَجلستْ
وتثاءَبَ قوَامها المـَرْمَـريُّ
مُعلنا ميلاد قيامةٍ غرامية

* * *

الجنّانُ يحصُدُ الأعشـاب
وَعيون أصدقائي تنقرُ بشرَهِ
قطرات البحر العالقة بأهدابها
أيتّهـا الوَميض
لقدْ أكدتّ لي

ان الله خلقك فسوّاكِ
وانك من فصيلة
تعيد السلام الى الانسانية المتحـاربة

* * *

لهفي العظيم وحرقتي الـكبرى
انك تجهلين
هذه الابتهالات الربانية
التي أرتلّها
نيابة عن خالقك العظيم

* * *

«الرّشـُوق» يصّاعدُ
وعطـرُها أبى
الا أن يضجّ به البحر
ومصطفى القـَطرّس الحائم
يفتكُ من عينيها

المستحيل السّرَاب

* * *

أيتها للعجلهات
ويا ايها الزمن الصّدفة
من أينَ أقهلتْ
وكيفَ فرّتْ
من حضرة خلاقها المبين

* * *

ايها الزّمنُ الصدفة
أُكتب على هذا العابر الشّهوان .
ان يُحرق مرتين
وَاحدة بنعيم حضورها
وثانيـة بجحيم عبورها

* * *

كان الاطفال يطاردون
الفراش .. والنور
يهربون الى المسبح
وكنا نحن الزغبي والـكعبي (1)و..
نغرق بنظراتنا
على روابيها الصيفية
في رَفرَفٍ منْ خضْر

* * *

السّلامُ على مَنْ اتّبعَ الهـوَى
لك الجوَاري المُنشآتُ
في البحر كالأعلامْ
ولك الصـور القائماتُ
في الاعين وَالأجسامْ

الربـاط — القصبة
اوت 1981

كتابة عبد الرؤوف الخنيســـي

---

(1) تعنيات بالعامية المغربية البائس اليائس .

لحبيبتنا الأولى .. سنغنّي ..

شعر : أبي وجدان
الصادق شرف

وكر الحربة فوق السرج العربيِّ هو الفارسْ ..
والفارسُ وحده قد صار فريقا ..
ها أقبل في يمناه الشعلة تزدادُ مع الإقدام بريقا ..
هلا فارسنا العربيّ .. على بوابة قرطاج ترجّلْ ..
قرطاج عريقة مجد لن تعشق الأ مَنْ كان عريقا ..
قرطاج الجوهرة الإفريقية والزهرة في كفك يا وطني
في الشمس تزيد مع الشمس رحيقا
.. مدّ يديكَ الى الجوهرة الان تفحَّصْها يا وطني
هذا عصر التفحيص مع الجوهرِ
حتى الجوهرِ
لا بد بأن نجريَ معه التحقيقا ..
الجوهر أصبح متهما بقشور العصرِ ..
رأيناك تمرِّر في الجوهر — يا قشرُ — التزويقا ..
رُدّ الى الجوهر أوصافه يا وطني .. أرْجعْ أوصاف القشر لهُ ..
فعناق الركح القشريِّ وراءهُ كمْ يخفي التطويقا !!

(*) تابع لما نشر في « الفكر » ع : 1 ، س 27 ، أكتوبر 1981 .

ميلان القشر الى الجوهر اهـلا .. سهلا .. ميلان الجوهر للقشرِ
ألا بعـدا للشـدو إذا ما صار نعيقـا . !
بُعـدا للشعـر .. اذا ما صار لوائح للعنف النثـريّ
وللثـور الشعـريّ
بقـرنين يمـارس فينا التمـزيقا ..
بُعدا للوتـر الشـرقيّ ..
إنْ يصبحْ حبـلا للخنـقِ ..
وخيطا للابـرة ما خاط ولـكن رقّـع تلفيقـا ..
بعـدا للبعـدِ عن الميـلان الواضح للعمـقِ ..
الواضحُ لا ينتظـر التعميقـا ..
منْ ثقبِ الابريق الضيق لولا الميـلانُ الواضحُ
ما تـرك المـاء الصافي الإبـريقـا ..
الخارجُ من ضيقِ الإبريقِ
رفيقُ الإشـراقِ ، كـأنّا
ما كـان لنا الإشـراق رفيقـا
رفقاءُ الحـرية رفقائي
وعـدُوّ الحـريـة سيظـلّ لنا
الخَصْـمَ الاوّلَ ، ويظـلّ عدوا حتى لو كان شقيقا ..
أرأيتَ الهاربَ من ذاته الا مهـروبا منه ؟
هـلْ يهـربُ منْ ذاته الا منْ كان (رقيقـا)؟

④ اغنيـة رابعـة الى رفقـاء الضـوء :

وطني العـربيّ على بـوّابةِ قـرطاجَ ترجّـلْ ..
في الضوءِ .. فلا أجمـلَ مِـمّـنْ كان له الضوء صديقا ! !

لا أجمـلَ مِمَّـنْ كان له الضوء صديقـا !!
لا أقـرَبَ مِنْ أنْ يصبحَ رفقاء الضوء على الزَّيف حـريقا . !
ماعدنا نخشى أنْ يتزيَّف رفقاء الضوء وراءَ المنظار الاسـودْ
والـكـرسيِّ الأسـودْ
ليصيـروا زعمـاء الفـرق وما عشقـوا الا التفـريقا ..
إنَّ الـكرسيَّ يصدُّ مرور الضوءِ الى الذاتِ يسدُّ طريقا ..
ويعـوِّج تحتَ الأقـدام طـريقا ..
ظلّ الـكرسيِّ يثير غباراً أدهم كالفحمِ المسحوق ليجعلَ
كـلَّ بياض في التغـريب غـريقا ..
أيمـدُّ الظلُّ المعوجُّ الى مغـروق العصر لينقذه ؟
أمْ ليـزيـده تغـريقـا .؟
ليعوجَه .. ويعوِّجَنا .. لـكنا مازلنا غصنا يحتجْ !!
عجبا : مازلنا نحتجْ !!
فمتى كان الغصن قويما والظلُّ هو المعوَجْ ؟!
الظـلُّ هو المعـوجْ !
هيـا مُـدينا يا قـرطاجْ ..
غُصنا انسانيٌّ الظلُّ يقص الظلُّ ..
الإنسانيُّ الغصنَ إذا اعـوجْ
ويمـدُّه للمغروق الغـارق في موج الغيـر يعـاكس فينا الامواجْ
الغارق في المـوت اليـوميِّ المتـكـررِ ..
كالطـوفان المتفجـرِ ..
بين الجـوهر وقشـور التـاجْ ..
ردَّينا للجوهر من ذاتِك يا قرطاجْ ..
لولا ما خلَّف القشر من الجوهر ما كسَّرنا القشر وماحولنا

وحداتِ الخلق الى ابـراجْ ..
الجوهر داخل هذا القشـر .. وما القشر سوى هذي التاجْ ..
هذا الواقف فوق النهج الانسانيِّ يمـزّق فينا الاوْشاجْ ..
يمتدّ مع العـرض يسدّ النهـجَ ..
يمتدّ مع الطول يمنهج فينا التاريخ بأخطائه ..
فينا يحكم اغلاق المـزلاجْ ..
لـكنّ الافواج الطالعة الان من السفح الى المرتفعِ ..
لا ترفع أصواتا بل ترفع أوجاع الضيق الى وجه المتّسعِ ..
ما قالتْ يوما : اه .. مِنْ وجعي . !
فالهـاماتُ تمجّ الآهات وتصرخُ : «هذي الاهاتُ لماذا ؟ »
فتجيبُ الآهاتُ بصوتٍ أوحدَ :
«مِنْ أينَ لكمْ هذا ؟» «مِنْ أينَ لكمْ هذا ؟»
«خذْ هذا من هـذا زاده ُلهـذا !»
خذ هذا مِنْ هذا الآخذِ فالفوج الأول أصبح أستاذا
الفوج الاول يعبر والجوهر ممهورٌ بالشمس على مشنقة الحلاجْ ..
والفوج الثاني يعبر ويفرق بين الجوهر والعاجْ ..
والفوج الثالثُ يعبر حيناً فيجددُه ..
ياحيُّ الميْتُ متى غدُه ؟ أمجيء الرابع موعده ؟
الرابع لم يعبر بعد ولـكنه : يصعد ليقولا
(الفعلُ هوَ الحلّ) :ابتدأ الان يقدمُ للأقفال حلولا
أفغيـرُ الفعـل يحـرّر منْ لمْ يفتأ مغلـولا ! ؟
لتصير الحرية روحـاً ويصير الانسان لتلك الروح هيولىَ ..
فاذا كان الانسان حبيبتَنا الاولى
فالحرية ستظـل حبيبا أولَ لحبيبتنا الأولى .

مساهمة في تعريف الدين

بقلم : أبي القاسم العليوي

ليس الدين موضوعا فلسفيا محضا بل انه يمثل مجال بحث مشترك بين جملة من العلوم التى قد تتباين أهدافها ومناهجها تباينا شديدا أحيانا .

من ذلك أنه يهم التاريخ عامة وتاريخ الاديان خاصة من حيث نشأته وتطوره وتأثيره فى العلية التاريخية وصلته « بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار فى السير والاخلاق والعوائد والنحل وسائر الاحوال » (I) .

ويهم الشريعة من حيث تأثيره المباشر أو غير المباشر فى تنظيم الهياكل والظواهر الاجتماعية والعلاقات الرابطة بين الافراد والجماعات والمؤسسات ومن حيث دوره فى بناء الشخصية القاعدية وتنشيط الضمير الجماعي ...

ويهم علم الاجناس من حيث تدخله فى تحديد أنماط العقليات وأشكال التجمعات .

ويهم علم النفس من حيث طبيعة الشعور الدينى نفسه وأسباب نموه وأهميته فى تحقيق توازن الشخصية وتيسير تكيفها فى العالم الخارجي ...

وقد لا يكون من المبالغة فى شيء أن نعتبر الدين شاملا لجل المظاهر والاحداث الهامة فى حياة الانسان من الاعياد والمواسم وحفلات الختان ومراسم الزفاف الى المواقف التى يتخذها حيال أبويه أو أولى أمره أو جيرانه أو اليتامى أو الفقراء أو المجاهدين أو الشهداء أو المجرمين أو غيرهم ... ومعنى هذا أنه جزء لا يتجزأ من واقعه الموضوعي ومكون أساسى من مكونات حياته الذاتية .

(I) ابن خلدون ــ المقدمة ، المجلد الاول ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الكتاب اللبنانى I961 ، ص : 45 .

والدين كاحد معطيات الواقع هو « مجموع السير والممارسات الـدينية ، وهو ، من هذه الوجهة ، ظاهرة سوسيلوجية (2) متصلة اتصالا مكينا بمحيطنا وحضارتنا وتربيتنا ولكنه ، بتعريفه هذا ، لا يعنينا بصورة خاصة بـل انـه يستثير اهتمامنا بنفس الصورة التى تستثيره بها سائر الظواهر الاجتماعية الاخرى التى تحيط بنا مثل الجبال والبحيـرات والغابـات ... ولذلك يمكن اعتبار ظاهرة كهذه من جملة ما ورثناه من الاعراف والتصورات السابقة للعلم Pré - Scientifiques « (3) .

ومثل هذه الصور الحسية الدالة على أن الدين عنصر مـن عناصر الواقع الموضوعى وعلى أنه ظاهرة تاريخية قابلة للتحديد ، لا تنفذ ، فى مجموعها ، الى جوهر المفهوم أى الى طبيعة الايمان وماهية الحياة الروحية . ومهما جمعنا من المعلومات والمعطيات المتعلقـة بالعبـادات والتعـاليم والتحديـدات الثقـافية والواجبات الاخلاقية وغيرها فاننا لا نتوصل الى تحليل مختلف أبعاد التجربة الدينية تحليلا شاملا ومرضيا .

وليس هذا مما يختص به دين دون آخر وليس فيه ما يفيد أن بعض المواقف الدينية الفردية أو الجماعية أعصى على الفهم من غيرها بل ان أهم ما يبينه هو أنه من غير اليسير أن نعرف الدين بالدقة المطلوبة ودون أن نذهل بعض مقوماته وتأثيراته السلوكية الاساسية ، ولقد حاول العديد من الفلاسفة وعلماء الدين وعلماء الاجتماع وغيرهم ، سواء أكان ذلك فى الشـرق أم فى الغـرب ، أن يضبطوا حقيقة الديانة Religiosité ومعنى الدين Religion ولكنهم مالوا فى كل ذلك الى تعريف الاديان من حيث هى معتقدات وطقوس تبلغهـا الاجيال السابقة للاجيال اللاحقة واعتنوا بالرموز الخارجية المميـزة للمحيـط الدينى ولم يولوا الشعور الدينى نفسه وأصولـه ودرجات عمقـه وأسبـاب استمراره وسيطرته على سلوك الفرد والجماعة ما هو خليق به العناية الـتى يفرضها دوره فى توجيه العلاقات وتحديـد المسؤوليـات وتبرير النشاطـات والمواقف .

---

(2) نستعمل هذه اللفظة دفعا لما يمكن أن يطرأ من لبس بين ما هو منسوب الى المجتمع (Social) وبين ما هو منسوب الى علم الاجتماع (Sociologique)

(3) Encyclopédie Universelle, IV éd, Gérard, 1962, p. : 228.

وليس غريبا ان تتميز آراء الدارسين لمفهوم الدين ببعض التأثر بانتماءاتهم الملية وحتى المذهبية (4) وأن تكون خاضعة ، بدرجات متفاوتة ، لبعض التيارات الطاغية على تاريخ ثقافتهم أو على سير حياتهم الحاضرة ولكن لا ينبغي أن تنشأ عن ذلك أخطاء متعمدة أو أعراض بدع تغيب فيها الخصائص الهيكلية في التجربة الدينية سواء أكانت يهودية أم مسيحية أم اسلامية أم غيرها . ونعني بالخصائص الهيكلية ما لا يندثر اندثارا كاملا بمرور الزمن ولا يتغير جذريا بمفعول الاحداث الظرفية والاحوال الطارئة والفروق الموضوعية وما لا يمكن بدونه أن نميز بين التفكير الديني الصحيح ورواسب الذهنية البدائية(5) Mentalité primitive وبعض مظاهر السلوك السحرى Comportement magique كالشعوذة وغيرها .

وكثيرا ما تكون التأويلات المنحازة سببا في تباين الآراء وظهور الاحكام المتطرفة وغير المستندة الى تعليلات عقلية مقنعة لأنها تنشأ في الغالب ، عن أحكام مسبقة Préjugés تدفع بأصحابها الى الانتصار لدين دون آخر والى تفضيل ثقافة معينة على ثقافة أخرى كما لو كانت دراسة الدين منحصرة كليا في مقارنة الملل وترتيبها وابراز ما يطبع كل واحدة منها من مظاهر ايجابية أو سلبية .

ولا تدعو الحاجة ، هنا ، الى استعراض مثل هذه الحالات اذ لو اقتصرنا على الدين الاسلامي وحده لا حتجنا في ذكر ما تعرض له من تحامل ظاهر ، الى دراسة خاصة ليس هذا مجال الاهتمام بها . وتوجد مثل هذه المواقف عند بعض المستشرقين الذين ينحرفون ، أحيانا ، عما يقتضيه البحث من تجرد واعتدال فيصدرون من الاحكام ما لا يطمئن له الدارس الموضوعي وان لم تكن لـه أية صلة ايديلوجية بالاسلام والحضارة الاسلامية .

---

(4) الملة هي الديانة ونعني بالمذهب مجموع الآراء والنظريات التي يعتمدها أصحابها في تفسير هذه الديانة .

(5) نذكر مثلا القرابين التي يفرضها بعض معتنقي العقائد البدائية على أنفسهم اتقاء للشرور التي يتوهمون أنه يمكن أن تلحقهم من بعض ظواهر الطبيعة أو من عالم المجهول وتكفيرا عن الخطايا والآثام ودفعا لسخط الآلهة .

ومنها ، على سبيل الاشارة ، ما أورده «ما كسيم رودانسون » Maxime Rodinson في كتابه الذى عالج فيه علاقة الماركسية بالعالم الاسلامى (6) من أن بعض الماركسيين السوفياتيين (7) يميلون الى الربط بين الاسـلام وما أسموه بالاضطهاد العربى للشعب الفارسى والشعب التركى وشعـب القوقاز بالاتحاد السوفياتى ويظنون أن الاسلام « خطير » لما له مـن شدة تأثيـر عـلى معتنقيه ولما يمثله ، حسب زعمهم ، من « ايديولوجيا اقطاعية » . ومنها أيضـا ما كتبه ريمون شارل Raymond Charles (8) ليفيد أن المسلمين « متزمتون » وأن ميلهم الشديد الى الاوهـام والخرافات لا يتماشى والفكر الخـلاق الـذى يميز الغرب .

ولا شك فى أن كل دين يمكن أن يكون عرضة لمثل هذه الحملات التى لـم نورد عينات منها الا لنلمح لمدى ما يمكن أن ينتج عنها من لبس وتحريف يزيدان مفهوم الدين تعقيدا ويصرفان الاهتمام عن حقيقته الجوهرية التى لا تتضح الا لمن وقف « موقف الناقد المحايد والعارض لتيارات هذه الحياة واتجاهاتهـا كما هى ، دون أن يصنع من نفسه تحويرا فى مجراها » ...

« وقد كان ذلك منهج بعض المؤلفين المسلمين ـ على الاقل وعدا به ـ أمثال محمد بن عبد الكريم الشهرستانى (... ـ ...) اذ يقول فى المقدمـة الثانيـة لكتابه « الملل والنحل » : « وشرطى على نفسى أن أورد مذهب كـل فرقة على ما وجدته فى كتبهم ، من غير تعصب لهم ولا كسـر عليهـم ، دون أن أبيـن صحيحه من فاسده وأعين حقه من باطله ، واذ كان لا يخفى على الافهام الذكية فى مدارج الدلائل العقلية لمحات الحق ونفحات الباطل » (9) .

ولعل اختلاف الآراء فى تحليل مفهوم الدين دليل عما لم يـزل يتردد مـن أقوال ملخصها ان العقل عاجز عن فهم الدين فهما كافيا وأن « هذا العجز يكاد

---

(6) Maxime Rodinson - Marxisme et Monde Musulman, Paris, seuil, 1972, 699 p.

(7) مثل « لوتسيان الاول كليموتيش » Lucien I Klimotich و « روجكوف (Rojkov)

(8) Raymond Charles - l'âme musulmane, Paris, Flammarion, 1958, 284 p.

(9) محمد البهى ـ الجانب الالهى من التفكير الاسلامى ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، 1972 ، ص 20 .

أن يكون ضرورة لا محيص عنها يضطر اليها من يؤمن برسالة دون سائر الرسالات . فان رسالات الانبياء جميعا لن تخلو من فضائلها ومسوغات الايمان بها ولن تنحصر الفضائل ومسوغات الايمان في رسالة واحدة » (١٥) . على أنه لا يصح أن يكون هذا العجز مطلقا حتى لا تكون علاقة الانسان بمعتقده علاقة الوارث الجاهل بحقيقة الموروث وحتى لا يتسم قيامه بالتكاليف بنوع من الآلية المستديمة التي تفقد ممارسته الدينية معناها الصحيح وتجعلها شبيهة بأية عادة من العادات التي تنغرس في النفس فتقوى عليها وتفتك بارادتها .

ولئن لم يهتد العلم بمختلف فروعه ، الى تحديد واضح لمفهوم الديانة وأصولها البعيدة فانه يمكن القول بأن الانسان منذ أن أمكن للتاريخ أن يعرف عنه شيئا ، وهو متدين يتبع طقوسا ويتمسك بعقائد بحيث يصح اعتباره « حيوانا متدينا » منذ بدء حياته وشروعه في البحث عن نفسه وفي تساؤله عن الكون . ومن الادلة على ذلك انه يمكن أن نجد جماعة من غير علوم وفلسفات وفنون ولكننا لا نجد جماعة بدون معتقدات . ويمكن أن نجد مدينة بلا سور أو بلا سوق ولكننا لا نكاد نعثر على موطن عمراني لا يوجد به مكان خصصه أهله للتعبد .

واذا ما تأملنا في أهم ما كتب عن الدين وحاولنا استجلاء أمهات الافكار التي قد تكون موضع اتفاق أو شبه اتفاق بين عامة المهتمين بالابحاث المتعلقة بالدين والسلوك الديني لامكن لنا حصر أبرز خصائص الظاهرة الدينية (Phénomène Religieux) في الابعاد الثلاثة اللاحقة :

أ ــ الايمان بالمطلق والتعلق بما هو مقدس :

يقول أبو حامد الغزالي (١٠٥٣ ــ ١١١١) « الايمان اسم مشترك يطلق على ثلاثة أوجه : الاول انه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشراح صدر وهو ايمان العوام بل ايمان الخلق كلهم الا الخواص

[و] الاطلاق الثاني أن يراد به التصديق والعمل جميعا ...

---

(١٥) عباس محمود العقاد ــ التفكير فريضة اسلامية ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الثانية ، ١٩٧١ ، ص ١٢١ .

[و] الاطلاق الثالث أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف وانشراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة » (11) .

والايمان « عملية باطنية مبنية على الاقتناع والتصديق فهو اصرار واقرار في الضمير . وهو صدق وتصديق واذعان للحقيقة واعتراف بها وانقياد تام لنور المعرفة » (12) . وبعبارة أخرى ، فهو قوة رابطة بين الانسان والقوة المطلقة التي يعترف لها بالسلطان عليه وعلى كامل العالم ويطيب له أن يشعر بالاتصال بها ويخضع لمشيئتها .

لذلك يرى شليرماشر (1763 ـ 1834) (13) Friedrich Schleirmachher أن ماهية الدين تتمثل أساسا في الشعور بالتبعية المطلقة ازاء اللامنتهي وأن هذا الشعور يصاحب الانسان في جميع فترات حياته ويسيطر عليه في تصوره لمنزلته في الوجود ونسجه لصلاته بالقوى الخارجية طبيعية كانت أو ما ورائية . ولقد توسع « أطو » (1869 ـ 1937) (Rudolf Otto) في تحليل جملة من النظريات المجانسة لهذه (14) في كتابه الذي درس فيه المحرمات والطقوس والمقدسات والذي بين فيه بالخصوص أن ما هو مقدس « لا يخضع للعقل بقدر ما يخضع للعاطفة ، ولا يفهم ولكن يحس به » (15) وان الانسان يعيش تجربته الدينية من خلال ما توفره له ثقافته من كنوز التصورات والشعائر المستمرة جيلا بعد جيل دون أن يفتر الاهتمام بها والحرص عليها . وغالبا ما تكون هذه التصورات والشعائر نابعة من الايمان بقوة مطلقة تتجاوز الانسان وسائر المخلوقات ، وتسوس الافلاك والاكوان التي خلقتها وأخضعتها لسلطانها غير المحدود .

وحينما نادت الرسل الى الايمان بالله لم تعن غير هذه القوة التي لم تزل تحتل مكانة مرموقة في التفكير الديني عامة . وهذه ، على سبيل التمثيل ،

---

(11) أبو حامد الغزالي ـ احياء علوم الدين ، الجزء الاول ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 120 و ص 121 .

(12) عبد الوهاب بوحديبة ـ أصناف المعرفة ومستويات الايمان ، العلم والايمان في الاسلام ، تونس ، منشورات مجلة الحياة الثقافية ، 1976 ، ص 26 و ص 35 .

(13) C F. Encyclopédie Universelle - IV, p : 233

(14) ليس غريبا أن يتفق « شليرماشر » و « أطو » اذ أن كليهما بروتستاني .

(15) Rudolf Otto - Le Sacré, Paris, Payot, 1949, 238 p.

بعض الآيات القرآنية التى تدل على أن الايمان بالله أساس الديانة وعلى أن العبادة من أهم وأقدم الواجبات المقدسة المفروضة على الانسان بغض النظر عن الملة التى ينتسب اليها :

- « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدونى » الذاريات : 56
- « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله » المؤمنون : 23
- « وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه » العنكبوت : 16
- « والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله » الاعراف : 65
- « والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله » الاعراف : 73
- « والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله » الاعراف : 85
- « وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم » المائدة : 72
- « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدونى » الانبياء : 25

ب ـ نظام العقائد والشعائر والقيم :

يتولد عن ظاهرة الايمان شعور بنسبية القوة البشرية الفردية والجماعية وتوق الى الطمأنينة يظهران فى سعى المتدين الى الانصهار فى مجموعته الدينية وفى مشاركته لأفرادها فى الالتزام بما يضبطه نظام عقائدها وشعائرها وسلم قيمها .

ولو لم يشترك معتنقو الملة الواحدة فى اقامة شعائرها والحفاظ عما تحتوى عليه من تفسير للوجود وتنظيم لشبكات العلاقات الرابطة بين الفرد وربه ، وبينه وبين نفسه ، وبينه وبين الآخرين لما أمكن لاى دين أن يدوم أو يساهم فى حل المشكلات التى تطرح باستمرار فى مستوى الفرد أو فى مستوى الجماعة الكبرى .

لهذا ، يعتبر الايمان المشترك بالقيمة المطلقة دعوة الى التكيف فى مجال أوسع وأشمل من مجال المشاعر الفردية ونعنى به المناخ الروحى الذى يلتقى فيه الفرد مع غيره يطلب ما يطلبون من هداية وأمن ويتضامن معهم فى اقرار مجموعة من القيم تكون لهم مرجعا فى اختيار الاعمال وممارستها أو فى مجابهة جميع الاحوال وخاصة اذا ما كانت غير منتظرة الحدوث أو غير مألوفة .

ومن أهم ما يتميز به هذا التضامن هو رفضه لضروب الانحراف عما هو متواضع عنه ومعترف به وتنشيطه الدائب للضمير الجماعي وتركيزه لقوة المجتمع الديني كذاتية مستقلة حريصة على البقاء وكسلوك جماعي له معاييره الخاصة في تأويل الظواهر الروحية والدنيوية . واذا كان المتدين (L'homme Religieux) مسؤولا ، بحكم ايمانه وعقيدته ، عن حماية نفسه بالرياضة والمجاهدة ، من التردي في مهاوى المحرمات والرذائل فلان الضبط الخلقي في النيات والاقوال والافعال مستمد من الضمير الديني الذي يعدل بصاحبه عما هو محظور أو محرم ويرغبه فيما هو حلال على أساس تمييز شامل بين الخير والشر والثواب والعقاب .

ولا يهمنا أن نعرف اتصال هذا التمييز بالتفكير الاستدلالي أو انفصاله عنه بقدر ما يهمنا التأكيد على أن المحرمات Tabous تمثل فكرة قديمة جدا. ولعلها من أهم الوسائل التي كانت مستعملة في المجتمعات البدائية لحث الفرد على التوافق على العرف الاخلاقي والاجتماعي الموجود .

ولقد حل الانضباط الفردي بالنواميس والقيم المشتركة محل هذه المحرمات في صورتها الرمزية والخرافية بحيث يمكن اعتبار مظاهر الكبت وأشكال العصاب Nevrose التي يعاني منها الانسان في المجتمعات المتحضرة بدائل عن هذه المحرمات ونظائر لانعكاساتها الممكنة في الحياة الذاتية خاصة . ويرى المختصون في التحليل النفسي Psychanalyse وبخاصة فرويد (1856 ـ 1932) Sigmond Freud ان الاعراض العصابية ناتجة ، في الغالب عن تصارع الرغبة المكبوتة والقوة الكابتة أخلاقية كانت أو شبه أخلاقية وأن « المحرمات لا تعدو أن تكون تعبيرا اجتماعيا عن الصراع . وهي في صميم طبيعتها متناقضة وجدانيا وتتضمن اتجاها مزدوجا من الرغبة والخوف ومن الجذب والدفع » (16) .

ج ـ التنظيم الاجتماعي :

يرتكز التنظيم الديني على أصول أساسية تتناقلها الاجيال الواحد بعد الآخر وتهتدي بها في مواقفها وتجاربها وتهرع اليها في حالات التوتر (Etats de Tension) التي قد تهدد أمن المجتمع وتوازن أفراده وهياكله

---

(16) جون كارل فلوجل ـ الانسان والاخلاق والمجتمع ، تعريب عثمان نويه وآخرين ، القاهرة ،دار الفكر العربي ، 1966 ، ص 170 .

ومؤسساته ، والمقرر فى المقابلة بين الديانات « أن المجتمع الانسانى يتطلب نصيبه من الديانة وان لم تشتمل على نصوص تتعرض للسياسة الاجتماعية لأن الديانات جماعية وفردية ، بل هى ألزم للجماعة وأولى بالقيام بين ظهرانيها لان ضمائر الافراد لا تنعزل بأعمالها عن شركائها فى الحياة الاجتماعية . وعلى ما فيها من الصلاح والفساد تنتظم تلك الحياة أو ينتقض فيها النظام » (17) . فليس من طبيعة الدين ان يتجنب المسائل الاجتماعية أو يتخلى عما يعترض الانسان من قضايا مادية اذ أن رسالته الاساسية تتمثل فى احكام التكامل بين المطلق (Absolu) والنسبى (Relatif) أى بين ما هو خالد (Eternel) وما هو تاريخى (Historique) فهو ، اذن ، أساس الاندماج الاجتماعى ومنبع المثل وأرضية العلاقات الدنيوية . وهو الذى يوفر للكائن البشرى اطار تفكير وعمل يجد فيه من النماذج والامثال ما ييسر عليه التلاؤم مع محيطه الثقافى وصوغ بنيته العقلية (Structure mentale) صوغا يشده الى ذاتيته ويجعله حريصا على استمرار التوافق بين أعماله ومعتقداته .

ولا شك فى أن تعرض الدين ، بالمعنى العام ، للتنظيمات الاجتماعية وصيغ الاصلاح الاجتماعى ومراميه من أبلغ ما يفصح عن اتساعه للسياسة والتشريع وعن اهتمامه بأحوال البيئات ومستقبلها . و « كيفما فسرنا الدين ، وسواء أكان اجتماعيا بالجوهر أم بالعرض ، فان ثمة ناحية لا سبيل الى الشك فيها وهى أن الدين قد قام دوما بوظيفة اجتماعية : وهذه الوظيفة معقدة ، اختلفت باختلاف الزمان والمكان . على أنها ، فى مجتمعات كمجتمعاتنا ، هى العمل على تدعيم مطالب المجتمع وشد أزرها ، وقد لا تقف عند هذا الحد الا أنها تبلغه فى أقل تقدير ... فكما أن الصورة الافلاطونية هى الحقيقة الكاملة التامة التى لا نرى فى هذا العالم الا محاكيات فضة لها فكذلك الدين ينقلها الى عالم جديد، ما مؤسساتنا وقوانيننا وعاداتنا الا محاكاة بعيدة لبعض نقاطه البارزة ... وهكذا فان الدين يزيل ما بين الامر الاجتماعى والقانون الطبيعى من فوارق » (18) .

---

(17) عباس محمود العقاد ــ التفكير فريضة اسلامية ، بيروت ، دار الكتاب العربى ، الطبعة الثانية ، 1971 ، ص : 179 .

(18) هنرى برقسون ــ منبعا الاخلاق والدين ، تعريب سامى الدروبى وعبد الله عبد الدائم ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ، 1971 ص 17 و ص 18 .

فالدين من حيث هو نظام من العقائد والقيم والاحكام يهدف الى تحقيق التوافق بين حاجات الانسان وامكاناته وبين أفعاله ومثله المستمدة من محيطة الروحى الشامل ويربى فيه ارادة الخير والتعاون وادراك الجمال والتفتح على الحب ليرتفع به الى تركيب أكمل وأغنى من تركيبه الطبيعى والاجتماعى ويجعل منه « خليفة الله فى الارض » .

لذلك لم تتمكن الايديلوجيات المعارضة للتجربة الدينية على استقطابها لاهتمام الناس وتزايد تأثيرها على الاجيال الجديدة وخاصة فى عهد النهضة التقنية المعاصرة ، أن تصد الدين عن مواصلة الانشغال بقضايا الانسان سواء أكانت مجردة أم عملية ، وسواء أكانت متعلقة بالعلاقات داخل الاسرة أم بالواجبات حيال المجموعة أم بالمراسم والمواسم المشتركة أم بالعمل والانتاج أم بتصور الغد الافضل والشوق اليه . بل انها لم تتمكن من سلبه هذا السلطان القديم الكبير الذى بدا لماركس (1818 ــ 1883) (Karl Marx) « أفيونا » بالنسبة الى الشعب والذى لم يزل قائما فى صفوف الملايين العديدة من البشر العاملين ، أنى وجدوا ، وكل حسب طريقته الخاصة ، على تحسين منزلة الانسان والتقدم به نحو ما ينشده من سعادة وسلام .

ابو القاسم العليوى

إني الشجرة

شعر: يوسف رزوقة

هَلْ أضحك مِنْ رَجُل تَسْتَدْرِجُهُ أمرأة ،
لا رأس لَها ..
لا وجه لها ..
لا قلب لها ؟
كي تأخذَ معطفهُ ، تستعمله وقت الحاجَةْ ...
هلْ أضحك منْ رجل بشع
بشع
بشع
لا يملك إلا أن يتخبأ وَسَط الثلاجهْ ؟
ما أغربَ هَذا العصرَ !!
لمنْ يتجملُ هذا العصرُ ؟
لجارية شمطاء تلوث بالأصباغ مَلامِحَهَا ..
وتلوك العلكة دون حَيَاءْ ؟..

* * *

الان سأبحثُ عنْ نفسي
لا ، لستُ نباتاً مائيا
أو شيطانيا حتى يعبث بي

هـذا الـزمـن الممسـوخ ..
لا ، لستُ عـذّابا مـكتـوبا في صفحـة انجيل مَنْسُـوخْ
إنـي الشّجـرَةْ
وَجـذُوري ضـاربـةٌ في عمـقِ التـاريخْ ..

* * *

مـا أروعَ هـذا البحـرَ !
عـلى وجـدانـه تـرتـكـز السفـن المشحـونة بالغَضَبِ ..
امتـدي أيتهـا اللّغـة السحـريّة مـنْ
شفتيَّ إلى ذاك اللّهبِ ..
كـوني مطـرا
أو كـوني معجـزة خضـراء
تقـول لهـذا أو ذاك المستعصي : كـنْ ! فـيكـونْ ..

* * *

الآتـي يسكـن زوبعتـي ..
ومخـايـل ذاك الفقـر تحـاصـر مَـمْلَـكَتِـي ..
لـكنـي أقـوى مـنْ فَقْـرِ العَصْـرِ ..
أقـوى مـنْ أحـلام السَّحـرَةْ
إني الشجـرَةْ ،
وجـذُوري ضـاربـة في عمـق التـاريخ ...

يـوسف رزوقـه

النّاي المصْدوع

قصة : محمود بلعيد

ذهب الصبي الى سوق سيدى محرز ليشترى نايا صغيرا . الطفل مسرور مبتهج ، يجرى و « خمسة فرنكات » فى جيب سرواله القصير ، يكاد يطير من شدة الفرح . هو يعرف الحانوت بدون شك ، سبق انه ذهب مع احد ابناء الجيران عند اشترائه نايا ، وها هو اليوم يذهب ليشترى نايا بدوره .

وتجد الحانوت بعد حمام سيدى محرز بحوانيت قليلة ، هى صغيرة ، بابها قصير ، أمامها جرار متكئة أزيار متكئة محابس متداخلة ، متراكمة ، شرابى مشدودة بحبل طويل مكدسة ، وبعض حصر من السمار مزدانة قائمة مستندة، الحصير بجانب الحصير .

سبق انه طلب من امه « خمسة فرنكات » المرار العديدة فكانت تقول له سوف تقلقنى وتوجع راسى بصفير نايك ... وألح عليها فصارت تقول له حتى تبقى عاقلا اياما وحتى تسمع الكلام ثم جعلت تقول له : حتى تذهب وتشترى لى الطماطم من باب الخضراء والزيت من باب سويقة وحتى تشترى لى اللحم من سوق الجزارة فى الحلفاوين ... وحتى تاتى لى بالماء من السبالة وحتى لا تقلب الدنيا بصياحك وهيجانك وسط الدار ، وفى الشارع مع أولاد الجيران ۰۰۰ وحتى لا تهبط « الطير مريشا » ۰۰۰ واخيرا ۰۰۰ وفى هذا الصباح الجميل فتحت قلصها الجميل وهو ينظر من بعيد ، وجذبت القجر ولم يدن ولم يتحرك وأخرجت الدورو ومدته له قائلة مبتسمة :

ـ « هيا اذهب واشتر الناى ولا تبطىء أسمعت ولا تبطىء ؟

خف اليها ومد يده فرحا ، وقبل امه فرحا ثم ۰۰۰ ثم ۰۰۰ أغلق باب الدار بشدة وأطلق ساقيه للريح ۰۰۰ خرج من زنقة سيدى بلهانى جريا ، عرج

يسرة وانطلق كالغزال الصغير يقفز ويجرى فى نهج حمام الرميمى الطويل الممتد الشديد الطول الذى يكاد لا ينتهى من شدة طوله ...

... بعد دقائق سيشترى نايا ، نايا صغيرا . بعد دقائق سينفخ فيه ويملأ الزنقة انغاما كابن الجيران واحسن من ابن الجيران ، ويملأ النهج انغاما عذبة ، ويملأ الدنيا الحانا جميلة ... انه سعيد حقا ، سعيد سعادة كاملة شاملة ، سعادة تغمر كل كيانه ...

وصل الى ساحة البيقة او شبه ساحة البيقة فوقف وهو يلهث والتفت يمنة والتفت يسرة ثم قطع الساحة ودخل نهج سيدى البيان الضيق الملتوى القصير ثم نهج سيدى محرز .

دخل السوق المكتظ بالرجال والنساء وعربات الباعة الصغيرة المنتصبة يمينا وشمالا طوال السوق تعرض الوشق والجاوى وعود القرنفل والعفص وقوارير صغيرة مملوءة عطرا ، مختلفة الحجم والالوان . اخذ يتسلسل بين العربات بخفة ومهارة حتى انتهى الى حمام سيدى محرز فوقف امامه برهة . بقى يلهث ويردد انفاسه بصعوبة ، ثم جعل يسير ببطء ويتأمل الحوانيت المجاورة للحمام حانوتا ... حانوتا ... الحوانيت كلها متشابهة القلال امامها مكومة ، والجرار امامها متراكمة مكدسة والشرابى مشدودة بحبال جديدة والحلالب فى قفاف عظيمة والشقاقات فى قفاف عظيمة او فى صناديق والطناجر متراصة متداخلة والدواثر معرمة والصحون بعضها فوق بعض مرتفعة ومغارف اللوح فى صناديق صغيرة او قفاف صغيرة ... والحصر مختلفة الالوان متراصة مصطفة متفاوتة الطول متفاوتة الحجم قائمة عن يمين الحانوت او عن يساره بقى يمهل الخطى ويتأمل حائرا مضطربا يبحث عن الحانوت ذات الباب القصير، وصاحبها الشيخ ذو اللحية البيضاء والشوارب البيضاء والكدرون الابيض ، الذى يبيع اجمل النايات واحسن النايات ... و ... و ... اخيرا وجد الحانوت ... وجدها ... فالباب قصير جدا ... وعند الباب عتبة مرتفعة بعض الارتفاع ينزل منها الى الداخل ببعض صعوبة ، والحانوت كما شاهدها لاول مرة مع ابن الجيران منخفضة السقف جدا ارضيتها من تراب ، مهملة مهملة بعض الاهمال ، هادئة ، ساكنة مظلمة ، رائحة الفخار تملأ انفه وكذلك رائحة الحصر ، فكأنه يطأ عتبة كتاب ، شعر من اعماق نفسه ، بكره ، كره قديم يعود اليه ... كره الكتاب وأولاد الكتاب وباب الكتاب ودروج الكتاب وحصر الكتاب ولوحة الكتاب ومحبس الكتاب ومؤدب الكتاب وعينه الحولاء

وانفه الاعقف ومخاطه وسعاله ونحنحته وهمهمته وبصاقه ومحرمتـه وعصـاه الطويلة التى يقذفها على كل طفل اخذه النعاس ومال ••• «ومحكوكة» الكتاب لكن كان يحبها كثيرا • وبرز له الشيخ من قاع الحانوت المظلم المخيف ، انتصب امامه بغتة فاختلج واهتز ، وسأله بصوته الاجش الكريه الذى سبق انه سمعه ، فشعر بخوف وفرح فى آن واحد •

ـ ماذا تريد انت قل لى ؟

فاجابه الطفل بسرعة •

ـ اريد نايـا !

فقال له الشيخ محدقا فيه كاشا :

ـ اسمع ، لا تقلقنى ، لا تكسر لى راسى هذا الصباح •

بقى الطفل صامتا جامدا ينظر الى الشيخ حائرا مبهوتا لا يدرى بماذا يجيب ، كان صوت الشيخ مخيفا حقا ، بغيضا حقا غليظا عكرا يبعث الجزع والهلـع فى القلوب الصغيرة •

وتابع الشيخ قائـلا :

ـ انى اعرفكم كلكم ، تاتون تبقون ساعة تقلبون النايات ترددون ، تعبثون بها كلها تتضاحكون تنفخون فيها •

بقى الطفل ينظر الى الشيخ مرتبكا خائفا لا يستطيع الكلام بل يدير وجهه قليلا متجنبا انفاس الشيخ الابخر المتمادى فى الصياح وبصاقه يتطاير •

ـ اسمع اسمع جيدا اختر واحدا ، واحدا فقط ومرة واحدة ، ولا تتراجع ، ولا تتردد اسمعت ؟

يجيبه الطفل بصوت خافت ، كاتما انفاسه :

ـ نعم سمعـت !

ويعود الشيخ ويصرخ صراخ الصم ، فاتحا فمه الخاوى المتجعد كفم قربة •

ـ ولا تندم افهمت ، ولا تندم فانى ابغض النادمين والمترددين وتاخذنى الجنون وأجن •

فيجيبه الطفل بصوت لا يكاد يسمع :

ــ نعم لا اندم ولا اتــردد

ــ ولا تقلقنى ولا تضجرنى ولا ترهقنى ولا تغضبنى هذا الصبــاح المبارك تشترى وتذهب عن وجهى بدون مشكل والا ، لا لا اذهــب عنى الآن ، اذهــب عنى من الآن .

يسرع الطفل ويجيب بتلعثم ولهفة وفزع شديد فكانه خسر الدنيا باسرها:

ــ لا ! لا ! سمعت وفهمت سمعت وفهمت ، ســوف لا اقلقــك ! ســوف لا اضجرك !!

يقول له الشيخ بعد ان حك راسه الاشيب مرارا وبعد ما قلب عينيــه فى رأسه مرارا ولوى فمه ومططه .

ــ هيــا معــى .

يتبع الطفل الشيخ الى قاع الحانوت المظلم فكان طريــق الجنة انفتــح امام عينيه ، ويشير الشيخ الى مكان مظلم فى زاوية . جعل الطفــل ينظر ويجهــد نفسه فلا يشاهد شيئا بقى هكذا زمنا ثم جعلت عيناه تتعودان بظلمــة المكان واخذت تظهر له شيئا فشيئا طاسة طماطم كبيرة عند الحائط مفتوحة الفم ، وأخذت تظهر له شيئا فشيئا رؤوس عشرات النايات تطل عليه من فم الطاسة صغيرة صفراء مشذبة مستديرة مختلفة الطول مختلفة الحجم ... بقى صامتا ساكنا جامدا منحنى الظهر قليلا يتامل فى النايات ...

صاح فيه الشيخ من ورائه

ــ هيا اختر واحدا واسرع ؟

يهتز الطفل ويمد يدا مترددة فيزعق فيه الشيخ ثانية بحقد دفين :

ــ قلت لك اختر واحدا واسرع ؟ الم تسمع ؟ أ أنــت اصم ؟ اعمى ؟ ابكم ؟ ابلــه ؟

فيمد الطفل يده بسرعة ، يتناول نايا بدون كلام نايا من بين النايات يضعه فى فمه ينفخ : تخرج نغمة فيسر .

يساله الشيخ سؤالا لا يقبل الرفض .

ـ اعجبـك

ـ نعـم

فيقول له بصوته الذى لا يطاق

ـ هيا هـات الدورو

ويمد له الشيخ يدا كالحة لا ترتعد ، يدا معروقة صلبة جافة داكنة كانهـا خشبة ، تبقى ممتدة جرداء متجهة للطفل تطالبه تطارده فكانه حضـر لعقاب شديد عند باب جهنم ، او كانه لعب لعبة محرمة ، فخسر ، ويجب ان يدفع الثمن توا ٠٠٠ تبقى اليد ممتدة مهددة شائكة حادة ٠

ـ هـات الدورو

٠٠٠ عندما يضع الطفل الدورو فى كف العجوز يشعر بشى من الانفراج والراحة ويعود الى الناى وينظر فيه من جديد هذه المرة ، وقد صار الناى نايه . يديره ويقلبه كما يشاء ، يديره مرات عديدة وفى آخر لحظة وقبـل ان يغادر الحانوت والشيخ منتصب امامه ينظر اليه بكره غريزى شديد ، يتفطـن الى صدع فى اسفل الناى ، شق طويل نحيف لا يكاد يرى ممتد يلمسـه الطفل بخوف ، يمرر يده عليه بعجل ووجل ، ثم يتحسسه بسبابته وابهامه ، ويتبعه طوال الناى . يجمد الصبى فى مكانه دفعة واحدة

يساله الشيخ بصوت خافت متنمرا متاهبا للانقضاض :

ـ ما بك قل اعجبك الناى ؟

ـ لا ! !

يطلق الشيخ صرخة مدوية كانه أصابه جنون :

ـ كيف لا ؟ كيف كيف كيف لا ؟ كنت تقول انه اعجبك ، كنت تقول هذه اللحظة انه اعجبك ؟ لقد حذرتك ، لقد نبهتك اخرج اخرج الآن اخـرج يركل الطفل يدفعه بقوة حتى يتعثر فى محبس هناك وسط الحانوت فينطلق المحبس يجرى اخرج الآن اخرج عنى اخرج ويدفعه من جديد بشدة يركله ويلطمه اخرج قلت لك اخرج يقذفه عند الباب ، خارج الحانوت ، صائحا ، شاتمـا ، لاعنـا مزمجرا ، منقبض الوجه ، مشتعل العينين ، مرتعش اللحية والشوارب بصاقه يتطاير ، يبرق ويرعد ، يرغى ويزبد كالجمل الهائج .

* * *

يغادر الطفل الحانوت مذموما ملعونا مقهورا مدحورا يسير ببطء بعدما ضربه رجل غريب ، انسان آخر غيرابيه ، بائع فى حانوت رطبة قذرة مظلمة ، شتمه ولطمه وركله وكاد يبصق على وجهه من كثرة تطاير بصاقه ثم دفعه خارج الحانوت بعدما افتك منه نقوده ، وناى مخروم ، مصدوع ، معدوم فيجيبه ، انه فى ساعة من ساعات الحزن الشديد ، الحزن القوى الحاد الفتاك الذى يشعر به الاطفال من حين لآخر ، ولا يوجد حزن يعادله فى الدنيا .

يقف عند بداية ساحة البيفة ، امام قهوة الشفار ويخرج الناى من جيب سرواله الصغير ، ويتامل فيه من جديد فى وضح النهار بعيين حزينة : انه مصدوع حقا ، خط طويل اسود نحيف يوجد هنالك عند آخر الناى . ينظر اليه الطفل ويتامله مليا ثم يعيد الناى الى جيبه ويتابع سيره بخطى بطيئة ثقيلة كأنه يحمل احزان الدنيا بأسرها • يقطع الطريق بدون ان يلتفت ، ويدخل نهج حمام الرميمى بدون ان يشعر ويمشى امتارا ثم يمشى زمنا ثم امام زنقة فتوح امام السبالة الموجودة فى اول الزنقة وتحت الساباط يقف ثانية ويخرج الناى ثانية ويعود ينظر فيه : الشق الملعون لم يتغير هو هو يمتد طويلا من آخر الناى حتى منتصفه او يكاد . ازداد حزنه حزنا وقال فى نفسه : سوف تغضب امى وتخاصمنى ثم تامرنى بالعودة الى ذلك الشيخ الرهيب ، ذلك الشيطان الرجيم وهذا من المستحيل ... الاحسن ان اذهب ، ومن الآن ، الى خالى • اذهب الى باب الخضراء ابحث عنه فى مقهى الحبيب : وسوف اجده كالعادة بين اصدقائه يلعب « الشكبة » فيشعر بقدومى ويشاهدنى بدون ان يرفع نظره ويقول لى فرحا كالعادة .

— اقعد ويشير الى كرسى بجانبه ، او بجانب صديق من اصدقائه ويخاطبنى ويحادثنى وهو منهمك فى اللعب •

— « ماذا تريد ان تشرب قازوزة أم قهوة بالحليب ؟

فلا اجلس ولا اجيب هذه المرة بل ابقى صامتا جامدا امامه فيلقى على نظرة سريعة كالبرق ويتابع لعبه قائلا متسائلا :

— « قل لى ما بـك ؟

فاجيبه بصوت خافت مرتبك

— « لا شىء

ـ لا لا انت لست كالعادة قل لى : ما بك ؟

ويلقى على نظرة ثانية سريعة محاولا فهم ما اخفى عنه ٠ واقول له بعد صمت

ـ لا لا شيء . ثم انظر نصف نظرة الى اصدقائه محركا راسى قليلا ٠

يقوم لحينه ويقول لأحد اصدقائه « العب مكـانى » ثم يأخذنى مـن يدى قـائلا :

ـ تعال نتحدث وحدنا ، تعال .

ويبتعد بى ٠٠٠ فانطلق ابكى ، فيقول لى مبتسما

ـ لا ! لا تبكى هكذا ! قل لى ما بك اضربك احد ؟ اخاصمك احد ؟ أشتمك أحد ؟ قل لى ؟

أبقى أبكى بكاء مرا شديدا . ثم اتوقف بصعوبة واشد نفسى وابـدأ أقص عليه قصتى والعبرات تخنقنى ، تهزنى هزا يرتج له صدرى ، ثم اعـود ابكى من جديد والدموع تنهمر ، تسيل غزيرة على وجهى وملابسى ٠ يخرج محرمته من جيبه قائلا ماسحا لى عينى وخدى ووجهى كله ٠

ـ انا اعرف ان الرجال لا يبكون ، وانت رجل ، والرجل لا يبكى ، لا يبكى ابدا امسح دموعك امسح عينيك خذ المحرمة خذ ٠٠٠

يقول لى هذه الكلمات بصوته القـوى الدافىء ، ومـن صوته هـذا القوى الدافىء تعود الى شجاعتى كلها ، ويعود الى ثباتى كله واكف عـن البكاء دفعة واحدة وانطلق اقص عليه قصتى كلها من اولها الى اخرها بدون توقف ٠

يصفر وجه خالى ، وتحتد نظرته وتتقد يبقى صامتا ساكنا زمنا ثم يقول لى بصوت هادىء يتميز غيضا :

ـ ترقب قليـلا ٠

يعود الى اصدقائه ويتحدث معهم برهـة ثم يرجع الى ويمسكنى مـن يدى قائـلا ٠

ـ هيا مـعى الآن ٠

۰۰۰ واسير بجانب خالى ، هو يمسكني من يدى وانا امسكه من يده ، هو يسير بخطى واسعة شاسعة وانا اقفز بجانبه واهرول وانظر اليه من حين لاخر فاشعر بالعزة واشعر بالقوة واشعر بمزيج من الخوف والفرح ۰۰۰ ونسير فى نهج حمام الرميمى الطويل الشديد الطول ۰۰۰ ونجعل نقترب من نهج سيدى محرز اكثر فاكثر واذا باضطرابى يغيب عنى واذا بى اشعر بالسعادة فبعد دقائق سينتقم لى خالى عز الانتقام وأبرده للقلب ۰۰۰ ونصل الى الحانوت ... ومن الباب يزمجر خالى ويزأر زئير الاسد الغاضب :

ــ اين انت اين انت يا شيخ يا وحش ؟

يظهر العجوز من داخل الحانوت مذعورا ، مرتعد الفرائص يتمتم متسائلا ، يقع نظره على فيمتقع لونه ، ويفتح فاه ، ولا يدرى ما يقول ۰

يصرخ فيه خالى من جديد :

ــ هيا بدل الناى المكسر بسرعة والا فهذه القلال كلها اكسرها على راسك وقد احتدت نظرة خالى واشتدت واتقدت عيناه ، واشتعلت نارا حامية ويتابع صارخا : « اسمع اسمع قبل كل شيء ويقترب من الشيخ حتى يكاد راسه يصطدم براسه ، ياتيك طفل صغير وحده ، ليشترى نايا ويشير نحوى باصبعه فتدفعه وتضربه ويقرب نفس الاصبع من عين الشيخ اليمنى فيكاد يفقؤها ، ويزعق ۰۰۰ أنا الآن سأدفعك كما دفعته ، سأضربك كما ضربته واركلك واخرج لك روحك وينقض على رقبة الشيخ انقضاض الاسد الفتاك ويشد عليها بقبضته الحديدية ويرجه رجا قويا عنيفا ينهد له الشيخ ، ويحمر وجهه ، ويشخر شخيرا مزعجا تنفتح له عيناه انفتاحا غريبا ، ثم يدفعه دفعة فيعمل راسه قربع على الحائط هيا هات النايات كلها واسرع ؟

يهرول الشيخ الى قاع الحانوت المظلم الحقير ويعود بالطاسة كلها ويضعها امام اعيننا بيد مرتجفة ۰

يلقى خالى نظرة سريعة الى الطاسة ثم يقول له باستهزاء :

ــ فهذه قطع من القصب ! تبيع قطعا صغيرة من القصب بدورو للأطفال وانت غير فرحان ؟

ثم يلتفت الى ويقول لى بصوت آخر :

ــ اختر ما تريد ولا تتعجل ؟

واعود الى الطاسة هذه المرة واشمر على ساعدى واخرج النايات كلها واطرحها كلها على الارض وسط الحانوت ، واشرع اقلبها نايا نايا ، انفخ في هــذا ، والقى ذاك جانبا ، وأنفخ فى ثالــث ، واجد الرابــع طويلا جــدا ، الخامس لا يعجبنى شكله ، والسادس قصبه ملتو وثقوبه متقاربة ضيقة والسابع اتركه جانبا ولا ادرى لماذا ، والثامن املس رهيف ثقوبه متسعة ، والتاســع محروق ، والعاشر قصير جدا ، والحادى عشر املس رهيــف ، والثانى عشــر قصبــه ما زال اخضر لينا اما الثالث عشر فهو جميل، متناسق، عقد قصبه قليلة لونه اصفر لماع ، انه يعجبنى يعجبنى حقا ، ابتسم افرح ، أقلبه مــن جديد ··· اقلبه مليا ليس فيه اى عوج ، ليس فيه اي صدع ، ليس فيه اى خلــل ، انه جميل رائع ، اتجه الى باب الحانوت اقلبه فى ضوء الشمس ، انه جميل جدا رائع حقا ، بديع فهذا احسنهم بدون شك ولا ريب هذا ابهاهــم انى وجــدت بغيتى ، وجدت اجمل ناى واروع ناى فى الدنيا ···

التفت الى خالى واقول له مبتسما ملوحا بالناى :

ــ هذا ! اريد هذا الناى !

يلتفت الى الشيخ ويحدق فيه مليا ثم يقول له مهددا متوعدا مغمضــا عينا فاتحا عينا محركا يده عند كل كلمة ·

ــ اسمع جيدا ، هذه المرة اعفو عنك لكن انظر ، انظر مليا الى هــذا الطفل ويشير نحوى بيده اليمنى ، بيده القوية الممتلئة ، بيده التى بقيت ماسكــة بى وبقيت ماسكا بها طوال نهج حمام الرميمى ، انظر اليه وافتح عينيك لو يعود اليك مرة اخرى واسمع كلمة واحدة منه كلمة واحدة فقط ·

فيجيب الشيخ باضطراب وصوت خافت نحيل ·

ــ نعم كلمة واحدة فقط نعم يا سيدى

ــ سمعــت

ــ نعم سمعت وفهمت يا سيدى

ــ والا فهذه الطاسة ، ويتناول الطاســة ويلوح بها أمــام عينيه ، فهــذه الطاسة ادخلها فى راسك ، واضربها ضربة واحدة ، وحتى عزرائيل لا يستطيع نزعها عنــك ·

ـ آه آه العفو ، العفو يا سيدى العفو ...

* * *

يتابع الطفل سيره فى نهج حمام الرميمى ، مبتسما حينا ، ضاحكـا احيانا وقد خفت حركته ونشطت : هكذا سيذهب الى باب الخضراء هكذا سيشاهد خاله على بعد مع اصدقائه فى المقهى ويقف امامه ويبقى صامتا جامدا ثم يقص عليه قصته على حدة ... يسير الطفل ويسرع والناى المصدوع الطويل بارز من جيب سرواله القصير يتدحرج عند كل خطوة يخطوها كانه عصا شـرطى صغيـر .

بلغ زنقة سيدى فتح الله ، وهى فى منتصف نهج حمام الرميمى تقريبا او اقل بقليل ، مسك الناى امام تلك الزنقة بيده اليمنى واخرجه ولم ينظر اليه، بل جعل يسرع الخطى اكثر فاكثر ، وقد عاد اليه نشاطه كله ، وعـند اقترابه من زنقة سيدى بلهانى ، خير ان يذهب الى منزلـه اولا وقبل كـل شىء لكى لا يطول غيابه عن امه فتتحير ، ثم يخرج بعد ذلك ويذهب الى باب الخضراء . وصل الى الدار · دفع الباب ودخل وعند صحن الدار شاهد امه داخل غرفتها واقفة فجمد فى مكانه · نظرت اليه ، امـ[illegible] ـحظة ثم سالته :

ـ هل اشتريت الناى !؟

فاجابهـا قائـلا :

ـ نعم اشتريـت

ـ ايـن هـو !؟

فاظهـر لها الناى على بعـد

فقالـت لـه :

ـ الحمد لله ! استرحت الآن !؟

فاوما لها براسه ولم يجب ثم قفل راجعا وامام باب الدار اخرج الناى من جيبه فظهر له ذلك الشق الرقيق الطويل ذلك الخط المشؤوم الاسـود النكد ، ظهر له الصدع ممتدا نحيفا سقيما لم يتغير ، فعاد اليه أمله دفعة واحدة وهزه هـزا عنيفـا ...

جلس عند حائط الجيران ، قبالة باب الدار ، وادنى الناى من فمه بدون ان يشعر ونفخ فارسل انغاما مقتضبة . ونفخ وتمادى فى النفخ واعمل اصابعه فى الثقوب فاستوى الاداء بعض الاستواء وانبعثت انغام وتلاحقت وازدحمت فكأنها كانت محبوسة ووجدت منفذا . وتمادى الطفل وتربع فاستقام الاداء واتسقت الانغام وانساقت فأتت لطيفة رقيقة حلوة طريفة وارتفعت اكثر فاكثر وجعلت تسرى فى صمت الهجير فاتته رائعة خلابة وجعلت تتسلل الى الديار المجاورة تدخلها دارا دارا والطفل يحرك اصابعه وينفخ والانغام تلو الانغام تعلو اكثر فاكثر تنبع فياضة عذبة مملوءة سحرا وجمالا ...

... ووصلت الانغام الى سمع صبية مستلقية على فراشها فانصتت واعجبت ، وتساءلت ثم قامت ، وجعلت تمد السمع والبصر ، وجعلت تتنقل على اطراف اصابعها حتى وصلت الى الباب واطلت فشاهدت صديقها الصغير ينفخ فى ناى صغير . بقيت زمنا تنظر اليه منبهرة معجبة ثم قالت له :

ـ ما أجمل هذه النغمات وما احلاها !

توقف الطفل عن اللعب ونظر الى صديقته مندهشا حيران ثم قال لها :

ـ كيف ! صحيح صحيح ما تقولين ؟ ! اعجبك الناى ؟؟

فاسرعت قائلة :

ـ انى لم اسمع انغاما اجمل منها فى حياتى ...

تهلل وجه الطفل بشرا ونظر الى نايه وكانه فى حلم . واداره ونظر الى ذلك الصدع الطويل الشديد الطول وامر عليه يده كلها بفرح شديد .

كان فى ساعة من ساعات السعادة التى يشعر بها الاطفال من حين لآخر ولا توجد سعادة تعادلها فى الدنيا .

محمود بلعيد

صَوْتٌ من الأزل

شعر : حمادي الباجي

أنَا شَاعِرٌ في الحَيَاة «وُجُودي» بِحُريَتِي أسْتَلِذ وُجُودي
لأنِّي أنَا ... وَأنَا مُؤْمِنٌ ! بِذَاتِي ... أحَطِّمُ كلَّ القيُودِ
وَأعْبُدُ حُريَتِي مُطمَئِنًا ولَوْ في جَهَنَّمَ ذَاتِ الوَقُودِ
إذَا كنْت حرًا بوَادِي الجَحِيم فَمَا غَايَتِي مِنْ جِنَانِ الخلودِ
أقُودُ مَوَاكِبَ شَمْسِ الحَيَاةِ بِبَيْدَاءَ شَاسِعَةٍ فِي صُمُودِ ..
وَيُمْكِنُ في الشك إدْرَاكُ ذَاتِي وَيَصْفَعُنِي وَاقِعِي في شُرُودي
وَأبْحَثُ عَنْهُ وَلَكِنْ أرَاهُ خَيَالا مِنَ العَالَمِ اللاَّ وُجُودِي
وَتَسْبَقُ عَقْلِي غَرَائِزُ طبْعي فَأهزَأُ بِالوَعْدِ بَلْ بِالوَعِيدَ
وَهَلْ يَبْلُغُ العَقْلُ أوْجَ الكمال وَلَوْ قَدْ تَجَاوَزَ كلَّ الحدُودِ ؟
وَأسْحَقُ كلَّ نَوَاميس قَدْ تُعَفِّرُ جَبْهَةَ عِزِّي المَجِيدِ

....

وَتَنْفَصِلُ الرّوحُ مِنّي عن الكوْ نِ في سَاعَةٍ مِنْ ذُهُول شَدِيدِ
وَأرْمُقُ طيْفا جَلِيلَ المُحَيَّا على شَفَقٍ مِنْ خَيَالٍ شَرُودِ
يُزَلْزِلُ عَرْش لَقِيطِ دَعِي تَألَّهَ مُنْذُ زَمَانٍ بَعِيدِ ...
وَيَنْعَكِس الطيفُ فوْقَ جِدَارٍ مِنَ الوَهْم في ظل أمس فَقِيدِ
لأنّي أفَكرُ لا في وجُودِي أفَكرُ في عَالَم لا وُجُودي

فواضيعة الخلد من جنتي   وعندي مفاتيح باب الخلود
فمن ياترى قد أضل سبيلي   وذاك المعارج عند صعودي
أإبليس ؟ كلا فما غير نفسي   وإني عليها لأشقى شهيد !
وينزعجني قلق مرعب   وأرتج ما بين كأس وعود ..
وأنظر حولي مليا فلا   أرى غير هذا الفراغ المديد
ويصد مني واقع مستقر   وأحجز كالنهر خلف السدود
وفي جسدي لذة الكبرياء   وفي مهجتي قوة من حديد
وأرفض أني سوف أموت   وأندس تحت ظلام اللحود
وقد كنت من قبل لاشيء لكن   أنا النار أسعرت قر الجليد
إذا ما انعزلت عن الرب يوما   وكنت ترابا بقبر زهيد ..
ولم أره بين أعماق نفسي   فهل أطمئن لبعث جديد ؟
ستخبو المصابيح من حول ذاتي   غدا ثم أشرق من نار عودي
وإني لمختلف في حياتي   عن الآخرين بروح مريد
وإني لمندفع نحو شيء   عظيم عظيم وراء الوجود
ولا عذر لي في غد إن تجلت   لدي حقيقته من بعيد ...

حمادي الباجي

الطب العربي

بقلم : د. سليمان قطايه
(حلب)

يعرف الطب العربي (1) بأنه كل ما كتب في الطب والعلوم الملحقة باللغة العربية ابان الحضارة العربية الاسلامية .

(لوكلير ـ تاريخ الطب العربي 1878 ـ براون ـ الطب العربي 1921 ـ كامبل ـ الطب العربي 1926 ـ ليشتنتايلر ـ تاريخ الطب (الفصل العاشر ـ 1978) .

وينكر البعض (2) الآخر هذه التسمية ويشدد على التسمية الاسلامية فقط وحجتهم في ذلك ان بعضا من العلماء العرب من أصل غير عربي امثال علي بن عباس المجوسي * مثلا ، ولكننا بذلك نستبعد الصابئة والمسيحيين واليهود الذين كان لهم اعمال ممتازة في الطب ** .

والواقع ان المفهوم الحضاري ، في رأينا هو الأهم ، وهو الذي يتناسب مع المفهوم الحديث للتاريخ . فلم يكن للعرب شأن قبل الاسلام ، ولم يتمكن الاسلام من العزة والقوة والكرامة لولا العرب .

فالحضارة عربية اسلامية : عربية اللغة والتقاليد والمفاهيم ، واسلامية الدين والفلسفة .

---

(1) براون ج . ادوارد : الطب العربي ـ ترجمة : أحمد شرقي حسن الألف كتاب ـ لجنة النشر بوزارة التعليم العالي ـ 1966 ـ ص 18 .

(2) Ullman Manfred : Islamic Médecine
Islamic Survys Edinburgh
University Press - 1978. P. XIII

* ـ هو فارسي اعتنق الاسلام ، وكان ذا أصل مجوسي .

** ـ يشدد بعض المستشرقين على التسمية الاسلامية وغايتهم فصل ما كتبه الاطباء اليهود عن الطب العربي ، ليجعلوا منه طبا يهوديا على حدة ، وليؤكدوا على علم يهودي مستقل .

والواقع ان العرب قد فتحـوا صدورهم للثقافات المختلفـة من يونانيـة ، وبيزنطيـة ، وفارسيـة ، وهندية ، واستطاعوا ان يذيبوها فى بوتقة فكرهم فصنعوا منها الحضارة العربية الاسلامية بعد ان اضافوا عليها الشيء الكثير . والكلام هذا ينسحب على كل من عاش خلال تلك الفتـرة الحضارية المزدهرة من كل الاجناس والاعـراق والاديان بما فـي ذلك اليهود فهم جزء لا يتجزأ من تلك الحضارة ، رغم كل الجهود الرامية لفصلهم عنها ، وكمثل نسوقه على ذلك الشاعر ابن جبرول (3) الذى ظل فترة طويلة معتبرا مسلمـا حتى ظهر انـه يهـــودى .

« كذلك فان المؤلفات الطبية التي وضعها اسحق بن سليمان الاسرائيـلي ، وموسى بن ميمون لا تختلف عن اعمال المؤلفين المسلمين وينسحب ذلك على الكتابات العلمية التى وضعهـا الاسقف النصرانى ابـن العبرى . والواقع ان مجرد كون كتب المؤلفين المسلمين قد امكن ترجمتها الى العبرية واللاتينيـة دون اية تغييرات جوهرية ، انمـا يثبت وجود تفاعـل بين الاديـان فى العلم الاسلامى لا تقل اهمية عما كان فى ذلك العلم من تفاعل بين القوميات . وربما كـان العلم هـو اقل الميادين الثقافيـة خضوعـا لعمليـة الصبـغ بالصبغـة الاسلامية » (3) .

لذلك فكل مـا كتب فى الطب هو عربى اسلامى ، بل اقرب الـى العروبة ، لان الاسلام ليس سوى الفكر الدينى للعرب .

ولقد اعتاد المؤرخون تقسيم الطب العربى الى ثلاثة مراحل :

الأولـــى : مرحلة الترجمة : ويبدؤونها مع حنين بن اسحق .

والثانيـــة : مرحلـة الابداع : وتنتهى مع ابن سينا (4) .

والثالثـــة : مرحلة الانحطاط : وتبدأ بعد وفاة ابن سينا .

الا ان فى هـذا التصنيف اجحـاف بالكثير من العلمـاء الذين عملـوا فـى الميادين العلمية قبل وبعد هذه التواريخ .

---

(3) عالم المعرفة ــ تراث الاسلام (القسم الثالث) : تصنيف : شاخت وبوزورت ترجمة : د. حسين مؤنس ــ المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب فى الكويت ــ ص 83 .

(4) Dr. Ammar Sleim : En souvenir de la Médecine Arabe 1962 P. 30

فالمعلــوم ان الترجمة بدأت فى عهد الأمويين ، عندما قــام حفيد معاويــة بن ابى سفيان ، خالد بن يزيد بترجمة الكتب عن اليونانية والتى امر بجلبهــا من الاسكندرية .

ولم تكن تلك الكتب كلهــا كيميائيــة ، فقد كان منهــا كتب طبية . وقــام بترجمتها يحيى النحــوى الذى عــلى مــا يبــدو اصلــه ســورى من مدينــة حمص (5) .

اذن علينا ان نبدأ تاريخ الترجمة منــذ ذلك العصر وليس مــن عهد المأمون واسحق بن حنين خاصة وان الكتب الستة عشر لجالينوس الهامة تــرجمت ، أو بدأت ترجمتها منذ تلك الفترة (5) أى فى القرن السابع ميلادى .

ثم تنشطت حركة الترجمة فى انطاكية ، ودمشق ، وبغداد وقبل عــام 900 كانت كتب ابقراط وجالينوس مترجمة كلها الى العربية تقريبا .

وتبدأ المرحلــة الثانية مع اواخر القرن التاسع ميلادى . وفيهــا ، كما هو معلوم ظهرت اسمــاء لامعــة جدا . ولقد استمر هذا النشاط الابداعــى فتــرة طويلة من الزمن . وبــدأ الانحطاط مــع اواخر القرن الثــالث عشر (استولى هولاكو على بغداد عام 1258) فقد توفى ابن النفيس عام 1228 م ، وابــن ابى اصيبعة عام 1273 م ، وابن البيطار 1248 م .

ولكن هذا لا يعنــى ان العلم قد توقف فقــد استمر بتباطؤ ، ينهض حينــا ويتعثر حينا آخر . ولقد وجد اطباء علماء يتمتعون بقيمة جيدة . وان لم تصل الى مستوى الاوائل ولكنهم كتبوا ، والفــوا ، ودرسوا امثال حجيج بن قاسم (ت 1584 م) وداود الانطاكى الذى توفى عام 1599 م .

ويمكننا مع لوكلير (6) اعتباره آخر ممثل للطب العربى . لأن العثمانييــن كانوا قد بدأوا ببسط نفوذهم وسلطانهم (انتصر سليم الاول على قاتيباى فى معركة مرج دابق عام 1516 وافتتح مصر عام 1517) معنــى ذلك ان الطــب

---

(5) Lucien Leclerc : Histoire de la Médecine Arab Burt - Franklin New York - 1978 Tome I P. 43

(6) « ج 2 ص : 303 .

العربي دام من : خلافة معاوية ابن ابى سفيان (661 ـ 680 م) حتى وفاة الانطاكي . اى حوالي : ثمانية قرون تقريبا . وهى فترة طويلة وجيدة .

والواقع ان التصنيف الاول المذكور فى بداية البحث محدود جدا وسببه قلة الاطلاع ، وصعوبة اللغة العربية (7) ، وندرة الباحثين الجديين (8) .

وقبل ان نخوض فى الطب نفسه لا بد من ان نذكر بأن العرب هم الذين أسسوا تاريخ الطب فلم يكن معروفا قبلهم فكتبوا عن تاريخه القديم والمعاصر لهم وعن رجالاته . بالاضافة الى أن التاريخ نهر جار لا يتوقف ، وكل يوم يمر يزيد معارفنا . وان ما عرف عن الطب العربى حتى الآن ، ليس سوى جزء يسير جدا (8) مما قام به العرب .

والكتب العربية الطبية المحققة بشكل علمى جيد ومطبوعة لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة * .

مع ان عدد المخطوطات الموجودة حاليا والمصنفة يتجاوز البضعة مئات عدا عن الموجودة غير المعروفة ، والتى اختفت تماما ولم تصلنا .

لذا فمن الصعب جدا ، حاليا ، وفى رأينا ، اصدار حكم نهائى قاطع عن الطب العربى ، قبل ان يقوم عدد كبير من الباحثين الجديين ولفترة طويلة بتحقيق ونشر هذه المخطوطات .

بالاضافة الى ان البحوث ، بشكل عام ، مقتصرة على بعض الاسماء اللامعة كابن سينا والرازى ، بينما لا تزال مخطوطات الكثيرين امثال : ابن النفيس ، وابن رضوان ، وابن الجزار وغيرهم تنتظر اليد الرفيقة التى تنتشلها من الاهمال .

---

(7) Lichtenthreler Charles : Histoire de la Médecine Fayard Paris. 1978 PP. 212

(8) ص : 223 .

* ـ لا يمكننا اعتبار الكتب المطبوعة فى بولاق ـ القاهرة ، او حيدر آباد الدكن ، كتب محققة . لانها طبعت للاستفادة من المعلومات الواردة فيها عمليا ، وليس لفائدة تاريخ الطب . كما أنها نشرت أخذا عن مخطوطة واحدة وليس تحقيقا .

ولـم يتورع بعض المستشرقين عن اصدار الاحكام القاطعة ، فجزموا بـان الطب العربى عبارة عن نقل للطب اليونانى (9) ، بـل زادوا فقالـوا إنه ليس سوى ترجمة وان العرب هم وريثو اليونان ، وان فضل العرب كائن فى نقـل العلوم اليونانية الى الغرب وتعريفهم بهـــا .

وكان من البديهى ان يتصدى لهـم فريق آخر رد عليهم بالنظرية المعاكسة على ان العرب نقلوا فى البداية ولكنهم ابدعوا ، أمثـال الفـرنسى لوسيـان لوكليـر (10) وكان على هؤلاء بالطبع ان يدلوا بالبراهين الواقعية والعمليـة لذلك ولم يكن هـذا بالشىء اليسيـر : فعدد المهتمين والمتخصصين بالطب العربى فى العالم قليل جدا . ومن توفرت فيه الصفات اللازمة من الموضوعيـة والعلم الغزير فى الطب والتاريخ والفلسفة واللغات القديمة أقـل .

ولكن العرب لم يأخـذوا عن اليونان فقط بل أخذوا عن الهنود والسيريـان والبيزنطيين بل يجد البعض تأثيرا صينيا أيضا . كذلك فهم لم يأخذوا كل شىء عن اليونان فهم لم يترجمـوا الادب والتاريخ والشعر والمسرح والملاحم واكتفوا بالعلوم البحتة والطب والمنطوق والفلسفة . كما قلنا فقد صهروا كل ذلك فى بوتقة عبقريتهم وجعلوا منها الطب العربـــى .

ثم ان بعض الاعمال (واغلبها كان صدفـة) استطاع ان يكشف الستار عن ابتكارات كان للعرب الفضل الاول فيهـــا .

نذكر كمثل الصدفة التى قادت محيي الدين التطاوى الى تقليب مخطوط ابن النفيس « شرح تشريح القانون » فىمكتبـة فرايبورغ بالمانيا (11) ليكتشف ان ابن النفيس هـو اول من وصـف الدورة الدموية الصغـرى ، وعندمـا نشر سلامة موسى (12) كتاب البغـدادى « الافـادة والاعتبـار فى الأمـور

---

(9) المصــدر رقم 1 ص 18 .
(10) المصدر رقم 5 : المقدمة .
(11) غليونجى بول : ابن النفيس ــ اعلام العرب ــ القاهرة ــ 1967 ، ص 70 و 71 .
(12) البغدادى عبد اللطيف : عبد اللطيف البغدادى فى مصر ــ المجلة الجديدة مطبعة مجلة المصرى ــ بلا تاريخ ــ كلمة المحرر .

المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » رغبة منه فى التعريف بمصر فى ذلك الزمان ، عرف المهتمون بأنه نقد جالينوس ورفض وصفه للفلك السفلى على انه مؤلف من قطعتين واكد انه مؤلف من قطعة واحدة .

كذلك عندما عثرت المستشرقة الالمانية فريدرون هاو بالصدفة ضمن مجموعة من المخطوطات على رسالة الرازى (13) « مقالة فى العلة التى من اجلها يعرض الزكام لابى زيد البلخى فى فصل الربيع عند شمة الورود » انتبه العلماء الى ان الرازى كان اول من وصف الرشح التحسسى فى التاريخ .

وبالطبع فلا يمكن لنا ان نفصل بعض هؤلاء المستشرقين على بيئاتهم ومجتمعاتهم والافكار السائدة فى ايامهم .

فلقد كان التاريخ ، وتاريخ العلوم ، بشكل خاص مجالا لاسقاط مفاهيمهم وافكارهم ومعتقداتهم .

ازدهر الاستشراق فى زمن اشتد فيه عضد الاستعمار وانتشاره وفى الوقت الذى ازداد فيه الغربى زهوا وغرورا بنفسه بحيث جاء وقت اعتبر فيه نفسه نقطة البداية لكل حضارة وتقدم (14) ، وكل مافعلته الأمم قبلا كان عبارة عن تمهيد لظهوره ، واشتط الامر بالبعض حتى وصلوا الى العرقية وفكرة الانسان المتفوق .

وكان العرب والمسلمون اول عالم تصدى له الغرب بسبب وضعهم الجغرافى، ومكانتهم التاريخية ، وغنى بلادهم ، وعلاقتها المضطردة مع اوربا .

فلا عجب ان كتب ما كتب عن العرب وحضارتهم خاصة وبعد ان ظهرت الصهيونية وراحت تلعب دورها المعروف فى كل مجال بما فى ذلك التاريخ الحضارى العلمى .

والذى نريد ان نؤكده ان البحوث الجدية القليلة التى كرست لتاريخ الطب العربى ابرزت الى حد ما ، اصالة الحضارة العربية وابداعها . ولا بد ان يكشف

---

(13) هاو فريد ورون وقطاية سلمان : تقرير الرازى حول الزكام المزمن عند تفتح الورد — مجلة تاريخ العلوم العربية — معهد التراث العلمى العربى بجامعة حلب — عدد 1 مجلد : 1 ، ص : 57 ، ايار 1977 .

(14) المصـدر رقم 5 ص 19 .

المستقبل ، خاصة واننا نرى فى البلاد العربية مؤسسات اخذت بالاهتمام الكلى بالتراث العلمى (*) ، عن اكتشافات علميـة اخـرى ، تؤكد اصالـة العـرب والمسلمين وتدحض النظرية العرقية والدس الصهيونى .

كانت اليونان جزءا من العالم الشرقى فعلاقاتها مع فارس ، وسورية ، ومصر قوية ، كما تشهد بذلك كتابات هيرودوت وهوميروس وغيرهما .

ولم تكن بقية اوربا فى ذلك الزمان سـوى اماكن مجهولـة تسكنها اقـوام متوحشة . لذا كانت علاقات اليونانيين مع الشرقيين (ولا تزال) قوية متينة .

واذا اضفنا الى ذلك ان المنطق العملى الحالى يرفض « المعجزات » لذا استطعنا ايضا ان نرفض فكرة المعجزة اليونانية . وهى التى تقول ان اليونانييـن بدأوا من لا شىء وخلقوا كل شىء .

والدليل : ان لادليل يثبت العكس . ولكن المنطق والواقع معا يرفضان هذه الفكـرة .

ففكرة « الخليقة التلقائية » مرفوضة ليس فقط فى مجال التاريخ الحضارى ، بل وفى مجال العلوم الحيوية والمادية ايضا .

الا ان ندرة المهتمين بالطب القديم : الآشورى والفرعونى وقلـة النصوص الطبية التى عثر عليها تكون حجرة عثرة فى اثبات اصول « المعجزة » اليونانية .

ولكن ثمة بعض الشواهد : فلقد عرف الآشوريون بأنهم درسوا الفلك بشكل جيد (15) ووجدوا علاقات بين الأبراج والحياة الانسانيـة واعطـوا الأرقـام صفات سحرية . الشىء الذى نجده فى المفهوم البقراطى للطب .

كذلك فان مفهوم البحران مأخوذ عنهم (16) . اما بالنسبة للطب الفرعونى نجد تشابها غريبا بين بعض تعاليم ابقراط وبينه بحيث نؤكد بأنه لابد قد اخذ

(*) من اهم هذه المؤسسات : معهد التراث العلمى العربـى بجامعة حلب ، ومعهد المخطوطات العربية المصورة فى القاهرة .

(15) Contenant : La Magie chez les Assyriens et le Babyloniens. Payot. Paris P : 138

(16) المصدر رقم 4 ص : 100 .

عن المصريين بعضا من تعاليمهم الطبية كوصف الرضوض القحفية ، ومرض الكزاز ، ووصف مركز الاستنماء فى النخاع الفقرى ، وبعض الوصفات الطبية (17) .

كذلك ولا بد ان قسما من التشريح الجالينوسى يعود الى الطب الفرعونى (18) ، لأن الديانات كلها منعت فتح الجثث لأى سبب كان ، ماعدا الديانة الفرعونية .

صحيح ان من كان يفتح الجثث لتحنيطها لم يكن محبوبا (19) ولكن ذلك لم يمنع من فتحها يوميا وبالعشرات .

فلابد ، ان الطبيب الذى كان يهتم بالتشريح ، استغل هذه الفرصة للافادة فى دراسة احشاء جسم الانسان . ورغم انه لا توجد شواهد على ذلك الا ان ذكر الأعضاء بدقة وتسميتها من الناحية التشريحية (20) شىء معروف عند قدماء المصريين .

اذ لا يعقل ان يقوم انسان ، مهما اوتى من ذكاء وحكمة ، بوضع معلومات بهذه الكمية وذلك المستوى الذى نجده فى المجموعة البقراطية أو المجموعة الجالينوسية.

فهاتان المجموعتان ليستا سوى تراكم معلومات حضارات مختلفة زاد كل انسان فيها حتى اصبحت ما عليه .

وربما هذا الاعتقاد ، اى ان انسانا واحدا وضع ذلك ، هو الذى جعل العرب يعتقدون ان بقراط جاءه وحى من الله (21) ، وان اليونان رفعوا من اسقولابيوس (22) الى درجة الآلهة .

---

(17) Leca Ange Pierre : La Médecine Egyptienne au temps des Pharaons. R. Dacesta. Paris 1971. P. 242

(18) المصدر رقم 17 ص 100 .

(19) المصدر رقم 17 ص 131 .

(20) المصدر رقم 17 ص 135 .

(21) ابن ابى اصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ـ مكتبة دار الحياة بيروت ـ 1968 ، ص 30 .

(22) المصدر رقم 17 ص : 43 .

ولقد عاب بعض المستشرقين على العرب انهم اخذوا النظرية البقراطية فى الطب .

صحيح انهم انتقدوها ، واضافوا عليها الشيء الكثير حتى وصلوا الى التخمة (23) ، ولكنهم لم يبدعوا نظرية طبية خاصة بهم .

والواقع ان النظرية هذه ظل معمولا بها حتى القرن الثامن عشر ، ولم تقوض دعائمها الا عند بداية العلم التجريبي .

وعندما انسحبت تماما لم يستطع الاوربيون الذين رفضوها ان يقيموا نظرية بدلا عنها . بحيث ان الطب المعاصر الآن لا نظرية له على الاطلاق (24) .

لذلك فلا يضير العرب ان هم اخذوا هذه النظرية عن اليونان بل على العكس ان فى هذا لمعجزة ، غير المعجزة اليونانية قل من اشار اليها من المؤرخين (25) :

لقد أقبل العرب على الطب اليونانى والدين الاسلامى في عنفوانه وقمة مجده فى الوقت الذى يتناقض الدين والعقلية اليونانية مع دين وعقلية العرب .

فالعرب مسلمون موحدون،واليونان وثنيون متعددو الآلهة والعرب ساميون ذوو عقلية دينية ميتافيزيقية ، واليونان عقلانيون ماديون .

ولكن مرونة الفكر العربى ، وتعطشه الشديد للعلم والمعرفة ، وكثرة الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التى تحض المؤمنين على العلم (*) ، جعلت من العرب محرقا تجتمع فيه أنوار العلم والمعرفة من كل البلاد وكل العقليات واصبحت العقلية العربية نتيجة تفاعل كل هذه العقليات والمعارف .

(يتبع)
د. سليمان قطايه

---

(23) المصدر رقم 17 ص : 207 .
(24) المصدر رقم 7 ص : 34 .
(25) المصدر رقم 7 ، ج 1 ص 4 .
(*) منها قوله صلعم : « الناس عالم ومتعلم ، والباقى همج » .

الى بنتــــي

شعر : د. محمد حسين آل يس
(العـراق)

لا تغاري يا طفلتي فتثـــوري   إنما أنتِ في هواي جــديدةْ
لا تقـولي : أنا وحيدتـك البـكـ   ـرُ ، ففي القلب ان تكوني الوحيده
أنا لي — قبل أن تجيئي — غرام   يتلظى وأمسيـات سعيــده
أمك الحلـوة الحبيبـة دنيــــا   قرّبت من يديَّ الأماني البعيـده
هي حبي من قبل حبك يا بنـ   ـتي فقرّي ولا تكوني عنيـده

* * *

ما لعينيك تتبعاني كما تتـ   ـبع عينُ الصياد أشهى طريده
فاذا ما مددت كفي وثغري   لحتِ لي ثورةً عليَّ شديده
فنمنيك بالتنـــزّه آنــــا   أو بأن نشتري هدايا فريده
واحتفال لكي تنامي أضعنا   في مداه محاولات عديده
كلّ هذا لكي أنال الذي لن   تفهميه إلا فتاةً رشيده

شعراء تشيكيون

تقديم وتعريب : محسن بن حميدة

يان نيرودا : (1834 ـ 1891) (JAN NERUDA)

ولد ببراهة سنة 1834 من اسرة فقيرة اشتغل بالتدريس ثم انقطع الى الصحافة والآداب فأسس وادار مجلات عديدة وكان على راس الشباب الادبى وأول ديوان شعر له « زهور المقبرة » والثانى « كتاب الاشعار » ثم تخصص فى الاحاديث ورواية الوقائع وكتابة الاقاصيص ثم عاد الى الشعر فى سنة 1878 « بالاناشيد الكونية » و « الحوافز البسيطة » واخيرا « اناشيد يوم الجمعة المقدس » وتوفى نيرودا فى 22 من اوت سنة 1891 ببراهة . (Brague)

أسطورة جبلية

– قولِي لي يَا جَدَّتِي كيفَ نُدَاوِي كلَّ جُرْح
كيفَ نُنَجِّي الجَرِيحَ مِنْ مَوْتِ سَرِيعِ مَحْتُوم
– يا بُنَيَّ إنَّ عَصِيرَ الفَسِيلِ العَجِيبِ هُوَ الوَحِيد
الذِي يدَاوِي جِرَاحَ جِسْمِ الإنْسَانِ المِسْكِين

* * *

– قُولِي لي يَاجَدَّتِي كيفَ يَجْدُرُ تَضْمِيدُ
رَأس مُلْتَهِبٍ حُمَّى وَأَلَمًا
– يَا بُنَيَّ لا أرَى لِمُدَاوَاةِ ذَلكَ الدَّاء
سِوَى وَرَقِ تُوتِ غَابَاتِنَا فِي الرَّبِيع

* * *

ويَنْطلِقُ الطفْـلُ في الحَالِ قَاصِـدًا المُـرُوجَ يَقُـول :
– أعْطِنِي أيّهَا السّفِيلُ رَحِيقَكَ مِـنْ فضْلِك
وَهَا هُوَ الانَ يُسْـرِعُ نَحْـوَ الغَـابَة المُجَاورَة يَقُـولُ :
– أعْطِنِي أيّهَا التّوتُ الأرضِيُّ المُحْسِنُ وَرَقَتَكَ الفَتِيّـةَ

* * *

وَعِنْـدَمَا يَفْـرَغُ مِنَ الجَنْيِ يَجْـرِي نَحْوَ الكَنِيسَة
قُـرْبَ المَـذْبَحِ يُعَانِي المَسِيحُ على صليبـهِ سكرات الموت
فيقول الطفل : إني بهذا العصير
أغْسِلُ قَلْبَكَ المُقَدس المَطعُـونَ
لأدَاوِيَ يَـا يَسُـوعُ جِـسْمَكَ المِسْـكِيـنَ المَجْرُوح
وعلى جَبِينِـكَ المُحْتَـرِقِ أضَعُ هَـذهِ الوُرَيْقَاتِ الخَضـرَاء
لأخْمِـدَ نَارَ الـدّغَاتِ الفَـاغِـرَة

* * *

يَـرِنَ النّـاقُـوس حَتى الافَاق الـزّرْقَاء
فَيَأتِي الجُمْهُـورُ ويُشَـاهِـدُ المُعْجِـزَة
دُعَاءُ تِلْكَ النّفْسِ الطفْلَـة
تُلَبّيـهِ الـرّأفَةُ الإلاهِيَـه

* * *

إنّ القَـرْيَةَ تَحْتَـفِظ إلى الان بِصُـورَةِ المُنْقِـذِ
لا شَـوْكَ بِالجَبِيـن ولا كلُـومَ بالقَلْبِ
جِسْمُـهُ في نَقَاوَةِ الـزنْبَقِ رَشَاقَـةً ونضَارَة

ت . ت : محسن بن حميده

عشقي مَصْلوبٌ على عنق الشهقة

ابداع: نعيمة الصيد

(1) امتطيتك سفينة سفر ..
مليئة بالطيب .. والبخور .. والند ..
والزهر ..
فنجوت من مقصلة قبيلتي ..
نجوت من سيف جلادي ..
(2) تنفست برئتيك ..
فنكسر طوق زماني الراحل ..
وغرقت اوصال عالمي في بحر
اللذات ..
(3) رضعت من حنانك حليب صباي..
ارتويت ..
شفيت من فطام السنين العجاف ..
وركض في عروقي دمي .. انهار
خمر ..
فرحت اشعل ضلوعي .. شموع
فرح ..
واحكم الابواب .. والاقفال ..
واحتمي بصدرك من الخطر ..
من ممارسة هوايتي ..
لعبة الانزلاق على الزمن الاملس ..
فانسرب في مساماتي لهائك ..
موج من الرعشات ..
اوقدت عالمي المجنون جمرا ..
امطرت حياتي .. دفئا .. وحنانا ..
وثمرا ..
(4) انبثقت من رحم النار حضارات
عشقي ..
تفتص نهر الشهوة في شعابي
الغجرية ..
تفرش لها ارضي حدائق جسدي
المعشب ..
حتى تستحم بماء العطر ..
فيغيبني فيك التوحد ..
(5) يطل الرب من العلياء ..
يبارك توحدنا .. تلاحمنا ..
يبارك احتضان النهر لرذاذ الموج ..
يبارك مواويل دفء الهمس ..
تبحر على شهقات اللهفة ..
(6) يا عشقي ..
انا امرأة قدت من لغط الجن ..
في عتمة الليل ..
ولحمي زغب عصافير ..
فرشته خضرة فوق سريرك ..
وفي عينيك ..
فتحته نافذة فرح مضيئة ..
ودمي مضغة في فم الضوء ..
رسمته شجرة تنبت ثمار الفستق
فوق اهدابك ..
فاسكن اقماري القزحية ..
وتوضأ من ملح جلدي ..
قبل ان يغرقك الطوفان الابيض ..
ويستنزف لونك ..

تونس ـ 1 ـ 10 ـ 81

لغة الشعر العربي الحديث وقدرته على التوصيل..

بقلم: محمود أمين العالم

ـ 2 ـ (*)

3 ـ اما التيار الثالث فهو ما يمكن تسميته بتيار التجسيد الواقعي . والتواقعية في الادب لا تفي ذلك المفهوم الذي سعى البعض في معركتهم الايديولوجية ضد الواقعية ، ان يشوهوه باعطائه معنى الاستنساخ الآلي او التقريرية الجافة ، او العقلانية او الشعارية الى غير ذلك . والواقعية في الادب لا تعني كذلك فرض اسلوب معين او نهج محدد للتعبير والابانة . بل تتنوع فيها الاساليب واشكال التعبير تنوعا لا حد له ، فقد تستخدم الرموز والاساطير والاحلام الى غير ذلك . انما المهم في الواقعية اساسا ـ وهي مستويات مختلفة ـ هو الحس بحيوية الواقع وصراعيته والتعبير عنه ادبيا في الادب ، اي ببلغة الادب ، لا ببلغة الواقع المباشرة . انه استخراج شعر الواقع ، وقسماته الجوهرية والمزج اغلاق بين الخبرة الذاتية والوعي الموضوعي ، باستخدام كل وسائل التعبير الممكنة التي لا تقف عند حد . وفي تقديري ان شعراء هذا التيار في الشعر الحديث هم ، كما اشرت في البداية ، امتداد لمدرسة الشعر الجديد ، شعر الخمسينات ، وان تعمقت خبرتهم الصياغية والدلالية . حقا انها لا تقتصر على شعراء الخمسينات بل تكتسب الى صفوفها شعراء جددا . فقد نجد بينهم محمود درويش الامتداد المتطور لمدرسة الارض المحتلة ، كما نجد بينهم وجوها جديدة مما يمكن تسميته باسم شعراء الجنوب اللبناني ، فضلا عن اسماء مثل سعدي يوسف والبياتي واحمد عبد المعطي حجازي وامل دنقل والفيتوري

(*) تابع لما نشر في العدد 9 ـ س 26 ـ جوان 1981 من مجلة « الفكر » .

وغيرهم وهم من ابناء مدرسة الشعر الجديد فى الخمسينات وان كنا نجد بين ابناء هذه المدرسة من تراجعوا او تجمدوا او توقفوا لعلنا نذكر من بينهم نازك الملائكة وصلاح عبد الصبور .

وعلى الرغم مما نجده بين ابناء هذا التيار الواقعى الحديث من اختلافات فى مناهجهم الابداعية وفى خبراتهم ورؤاهم الحية ومواقفهم الاجتماعية ، فان هناك ما يجمعهم . ولعل ابرز ما يجمعهم هو ما نستشعره فى شعرهم من نبض الواقع الآنى الحسى بابعاده الدرامية على اختلاف اساليب تعبيرهم . ونستطيع أن نتبين فى شعرهم ثلاثة عناصر متداخلة متشابكة ، فهناك التاريخ الذى يعبر عن نفسه تعبيرا أفقيا فى شكل قصة ، حدوثة ، حكاية صغيرة ، تفاصيل لحظة انية حية . وهو دائما تاريخ حسى زاخر بالتفاصيل الصغيرة والكبيرة ، ولكنها تفاصيل ملموسة تتحرك وتتلاقى وتتفرق لتشكل هذا الخط التاريخى الممتد وان عبرت عنه وعنها رموز واقنعة تراثية او شعبية او دينية . ولكن هناك دائما الدراما ، التى تتساقط عموديا على هذا الاتصال التاريخى الافقى ، متقطعه ، وتوتره وتعمق دلالاته وايحاءاته ثم هناك اخيرا الغنائية التى نستشعرها برغم – او بفضل – ما فيها من تجديد ايقاعى ، ومن تخل عن القافية احيانا وعن التفعيلة المطردة احيانا كثيرة . انه شعر التجربة الذاتية الحية ، بل التجربة الحسية جدا ، والوجدانية جدا ، وان لم تخل من فكر ، ولكنها التجربة الموضوعية كذلك . انه شعر الصور المتنامية افقيا فى شكل حكائى وان كان يرعشها دائما تقطيع درامى حاد وهو شعر غنائى في غير اطراد ، في غير رتابة انه الوعى بالواقع ، ومعاناة الواقع ، ومصادمة الواقع فى تشكيل شعرى ابداعى فى كثير من الاحيان ، يكون شعر مناسبات . ولكن ... يا لها من مناسبات ! محنة تل الزعتر فى قصيدة احمد زعتر لمحمود درويش وقصيدة الساعة الاخيرة لسعدى يوسف . مصرع المناضل عمر بن خلدون ، انتفاضة مصر فى 17 و 18 يناير 1977 في قصيدتى عرس المهدى والقيامة والطفل الضائع لاحمد عبد المعطى حجازى الصلح مع اسرائيل في قصيدة (لا تصالح) لامل دنقل، العدوان الطائفى والصهيونى على الجنوب اللبنانى فى شعر شعراء الجنوب اللبنانى عامة . على ان هذه التعابير عن تلك المناسبات ، هى تعابير عن تلك المناسبات ، وتعابير بها ، فى بناء شعرى يرتفع بالمناسبة المحددة ، الى ما هو غير محدد ، الى ما هو جوهرى فيها الى ما هو جوهرى فى تجربة حياتنا ، فى محنة حياتنا المعاصرة ، تعميقا لخبرة حية ، وابداعا لرؤية شاملة متعددة الدلالات والايحاءات .

واذا كان هذا هو ما نجده قسمة مشتركة بين شعراء هذا التيار ، وان اختلف وتفاوت المستوى بينهم كذلك ، فى اعمق ما تتمايز تعابيرهم الفنيــة ورؤاهــم الخاصة .

محمود درويش مثلا ، نجد فى شعره هذا النسج القصصى الدرامى الغنائى وان تميز بغلبة النبض الدرامى الحاد الذى يجعل من الخط الافقى القصصــى تقطيعات ووثبات وانتقالات مفاجئة فى المكان والزمان والدلالة ، كما يتســم شعره كذلك وخاصة فى المرحلة الاخيرة ببروز الفكر الذى يندمج احيانا فى عملية بناء القصيدة على انه يتخذ احيانا اخرى شكل عملية استدلالية او سياسية تجريدية (22) بل تقريرية تفجر روح الادانة والشك والغضــب والتساؤلات الحادة والاصرار المناضل ، دون ان يفقد شعره توتره الدرامى ، وغنــائيته . فلنتامل هذه الفقرات عن قصيدته الاخيرة (بيروت) تاكيدا لهذه السمات :

... من مبنى بلا معنى الى معنى بلا مبنى وجدنا الحرب ..
هل بيروت مرآة لنكسرها وندخل فى الشظايا
ام مرايا نحن يكسرنا الهواء ؟
تعال يا جندى حدثنى عن الشرطى :
هل اوصلت ازهارى الى الشباك ؟
هل بلغت صمتى للذين أجلهم ولاول الشهداء ؟
هل قتلاك ماتوا فيك من اجلى واجل البحر ..
ام هجموا على وجردونى من يد امرأة
تعد الناى لى والشاى للمتحاربين ؟
وهل تغيرت الكنيسة بعدما خلعوا على المطران زيا عسكريا ؟
ام تغيرت الفريســه ؟
هل تغيرت الكنيســه ؟
ام تغيرنا ؟

او يقول فى القصيدة نفسها :

---

(22) درويش (محمود) : قصيدة بيروت ، مجلة الكرمل ، ص 27 و ص 30 وص 31 . العدد الاول 1980 .

فسر ما يلي :

بيروت (بحر ــ حرب ــ حبر ــ ربح)

البحر : ابيض او رصاصي ، وفى ابريل اخضر ،

ارزق ، لكنه يحمر فى كل الشهور اذا غضب

والبحر : مال على دمى

ليكون صورة من احب

وهكذا يواصل بنية القصيدة مفسرا الحرب ، فالحبر ، فالربح الذى يقول فيه :

والربح : مشتق من الحرب التى لا تنتهى

منذ ارتدت اجسادنا المحراث

منذ الرحلة الاولى الى صيد الظباء

حتى بزوغ الاشتراكيين فى آسيا وفى افريقيا .

والربح يحكمنا

يشردنا عن الادوات والكلمات

يسرق لحمنا

ويبيعه

بيروت ــ اسواق على البحر

اقتصاد يهدم الانتاج

كى يبنى المطاعم والفنادق

دولة فى شارع اوشقة

مقهى يدور كزهرة الصبار نحو الشمس .

ومع شاعر آخر هو احمد عبد المعطى حجازى نستشعر ذات النسج القصصى الدرامى الغنائى كذلك ، ولكننا نستشعر غلبة الطابع الحكائى القصصى ، التواصل الافقى لبناء الصور البارزة لا تساقط فى فراغات ، لا انتقالات مفاجئة، بل نتحرك حركة تكاد تكون منطقية الخطوات في تشكيل بنية القصيدة دون أن نسقط في تجريد أو شكلية القصيدة عنده ملاء متماسك متصل وجدانيا

ودلاليا ونغميا . بل لعل ايقاع شعره ان يكون عنصرا اساسيا من عناصره الدلالية . على اننا نحس احساسا شبه لمسي باشياء العالم ، لا أقول معطياته ، وانما اشياءه ، ملموساته . إنه شعر الواقع المباشر الحي متجسدا متشكلا مصاغا في واقع الشعر . إنه شعر لا يستنسخ الواقع وإنما يكتشف فيه شعريته . وواقعه الاشاري المباشر ، هو واقعنا العربي ، همومنا القومية جراح حياتنا اليومية ، مفاخرنا وامجاد تراثنا ، الا انه في شعره وبشعره يرتفع الى رمز انساني شامل وان لم يفقد خصوصيته الحارة . ذلك انه في أعماقه وفي اعماق شعره ، بقايا الحزن الريفي الرومانطيقي . ما زال الضياع بين القرية التي غابت ولم تغب ، والمدينة التي تغيب وتغرب ، حلما فروسيا من اجل الحق والسعادة وانسانية الانسان ، ولكنه لحلم — على فروسيته — حزين حزين .

ولعل قصيدته (طردية) ان تكون من ابرز قصائده تعبيرا عن جوهر نهجه الشعري :

هو الربيع كان ، واليوم احد
وليس في المدينة التي خلت
وفاح عطرها سواي ،
قلت أصطاد القطا ،
كان القطا يتبعني من بلد الى بلد
يحط في حلمي ويشدو
فاذا قمت شرد
حملت قوسي وتوغلت بعيدا
وجه الصبي الذي ليس يؤكل ميتا ، ووجه النبي
الذي تتآكله خطوة في السماء الغربيه

واذ يقف الناس في ساحة الطيران جلوسا ، يبيعون اذرعهم : سيدي قد بنيت العمارات .. اعرف كل مداخلها ، وصبغت الملاهي .. اعرف ما يجذب الراقصين اليها . ورممت مستشفيات المدينة ... اعرف حتى مشارحها . سيدي ... لم لا تشتري ؟ ان كفي غريبه (23) .

---

(23) يوسف (سعدي) : ديوان «الاعمال الشعرية» (1952 — 1977) ص 149 — 150 دار الفارابي — بيروت 1979 — راجع تحليل يمنى العيد ، القيم لهذه القصيدة في مجلة الطريق ص 87 . اكتوبر 1979 . بيروت .

ـ اجس ذراعك ؟
ـ ياسيدى جسها ...
ـ امس . اين استغلت ؟
تطير الحمامات فى ساحة الطيران ... وعينا المقاول
تتجهان الى الاذرع المستفزة . يدخل شخصان
سيارة نقل .. ثم يدور المحرك ، ينفث فى ساحة
الطيران دخانا ثقيلا ... ويترك بين الحمائم والشجر
المتيبس رائحة من شواء غريبة .

وقد اكتفى اخيرا بالحديث عن شاعر آخر يتميز شعره كذلك بهذا النسيج القصصى الافقى الذى يقاطعه ويتقاعد عليه بنض درامى حاد وغنائية عالية ، هو الشاعر امل دنقل ذلك ان لهذا الشاعر ما يميزه عن اغلب الشعراء المحدثين فهو يكتب احيانا ، بل فى كثير من الاحيان ، بلغة اقرب الى النثر العادى ، على انه يتمكن بها من رسم صور حسية بارزة ناتئة فى خشونة قاسية وهو يوظفها فى اقتدار للتعبير عن تهكميته الحادة وسخريته الشديدة المرارة ، والتى تجعل منه نسيج وحده فى هذا المضمار .

نقرأ فى ديوانه (تعليق على ما حدث) (24)
كل صباح
افتح الصنبور فى ارهاق
مغتسلا فى مائه الرقراق
فيسقط الماء على يدى .. دما
.....
وعندما
اجلس للطعام مرغما
ابصر فى دوائر الاطباق

(24) دنقل (أمل) : ديوان «تعليق على ما حدث» صفحات II ، I2 ، I4 ، I5 . مكتبة مدبولى . القاهرة طبعة ثانية I978 .

جماجما
مفغورة الافواه والاحداث .
او يقول فى الديوان نفسه :
توقفنى امراة ..
فى استنادها المثير
على عمود الضوء :
كانت ملصقات (الفتح) و (الجبهة) ...
فى النهار المبتعد
ابحث عن طير القطا
حتى تشممت احتراق الوقت فى العشب
ولاح لى بريق يرتعد
كان القطا
ينحل كاللؤلؤ فى السما ثم ينعقد مقتربا ،
مستجمعا صورته من البدد
مسا قطا ، كانما على يدى
مرفرفا على مسارب المياه كالزبد
وصاعدا بلا جسد
صوبت نحوه نهارى كله
ولم احـد .
عدوت بين الماء والغيمة ،
بين الحلم واليقظة مسلوب الرشد
ومذ خرجت من بلادى ..
لم اعد .

(يتبـع)

محمد أمين العالم

خطاب لِـ(زُرْ غبًّا تزدَدْ حُبًّا)

شعر: رجب بن مهني

ولـن أستَـصيغَ الهـُـرّاءَ .
صـداعٌ يؤرّقُ أذني
وطعـنٌ مـن الكلمـات
فإن أنت أبحـرت فيـه ارتجفتَ
فبـَرْدُهُ شـَات
وحرّه في النفس يثقـلُ كـلّ حيـاتي
فكيف تـرى يقبـل السّمـع ان يتـردى
ليُصغـي للنبـرات ؟
فلـو كانت الأذن عينا ، لأغلقتها واسترحت
مـن العربـدات
يحيـرني ان لقيتُ عييـا
يُبعثـرُ لفظـهُ كالحشـر جات
ويـروي أحاديث عمـا مضى من زمـانـه
أوْ مـا سيـأتي
تجفّ عيـون الصبابـة والـذكـريات
يمدّ إليّ الهـرّاءُ أصابعه .. ويـديه
ويسألني جاهـدا أن أحـلّ لـدَيـه

فألعنه ،.. ويلاحقني ،.. ثمّ إني بالحقد أرنو إليه
فما كنت أرغب في السهرات
ثقيل بها الليل كالطورِ يشمخُ تحت الثراء في نزُول
ونجمه يرنو إلى الناظرين ولكنه دائما في أفول
فما أسْخَفَ الليلَ يَجْمَعَنَا ! وما أظلَمَ السمْعَ يُغْرِقُنَا !
في متاه ثقيلٍ
يصير الزمان عليلا ولكنهُ في ثياب الطبيب
ويبدو الكلام جليلا ولكنه كانفجار النحيب
تشاء المسافات ما بيننا أن تصير قريبا
وأُسْلِمُ نَفْسِي قريبا غريبا
وأشربُ حتى مياه البحار
وما كل ماء سيشفي الغليل
إذا انتحب الريح بين الفجاج ،.. فكيف سيقبل مني احتجاجي ؟
وكيف أرُدّ هديره عني وهل كنت أبشُرُ بالإنفراج
متى تنتهي من حديث سقيم تردّدهُ دونَ أي رَوَاج
فيعلو شراعك يحملك المركب الساحلي لعمق البحار
تصافحني فأودّع تلك الشفاه بفيض انتصار
وأهْزِمُهَا والزمانُ حليفي فإنهُ يمضي بلون قرارِ
ويسعفني بالهدوء عزاء
فإني لديه لقيت الرجاء
وما كنت أرغب منك البقاء
ولكنني صامت في ذهول
لأنيَ أعز من أن ابدد غيم الفضول

رجب بن مهني

لعنة الوشاح المقدس

قصة : الناصر التومي

أطلت عذراء قرطاجة من معبد تانيت، يتبعها الكهنة بأرديتهم البيضاء شاحبي الوجوه محلوقي الرؤوس ، فبانت تلمع تحت أشعة الشمس الذهبية وبانت بينهم عذراء قرطاجة كأبهى ما تكون ، فتنة وطهارة وقداسة ، وكان لظهورها أمر وأى أمر . ان مرتزقة قرطاجة الذين جندوا للدفاع عن امن المدينة وتجارتها ، يحدثون الفوضى والصخب ، فقد اقتلعوا الاشجار وحطموا حوض السمك المقدس مطالبين بأجورهم المتأخرة ، ولكن من اين ستدفع قرطاجة وخزانتها افرغت فى خزائن روما بعد انتصارها الاخير على قرطاجة ، ولم يكن فى مقدور احد كبح جماح ثورتهم الا قضاء الآلهة تانيت ربة القمر .

ما ان أطلت صلامبو من ذلك العلو الشاهق ، من معبد الربة تانيت حيث مخبأ سر وعلة نجاح قرطاجة وانتصاراتها المتكررة على اعدائها انه الوشاح المقدس الذى حاكته انامل الالهة ، وان ارادت قرطاجة المحافظة على بقائها فعليها بالمحافظة على الوشاح والا ذهب ريحها .

اشرأبت الاعناق وتسمرت الاقدام فى اماكنها ، وجحظت الاعين لعذراء قرطاجة ، انها اشرف واقدس انسان بالمدينة بعد الالهة ، ولقد منحتها الربة شيئا من هذه القداسة والشرف ، وما ان وصلت الى جموعهم والكؤوس لا تزال بأيديهم حتى صبت عليهم صواعق عتاب ، فاكتسحت اجسادهم قشعريرة كقشعريرة الذى يجابه امرا جليلا ، امرا من لدن السماء والالهة . اقتربت من احد الجنود الذين اشتهروا بالقوة والبسالة وهوليبى ، وصبت له فى كأسه خمرا بينما كان هو مشدوها ومسحورا بجمالها ، وقد كان يهيم بها عشقا ، وما ان اتاحت له الفرصة للمثول امامها عن قرب ، ولاول مرة حتى ازداد لهيبه ، فمد يده محاولا مسكها من معصمها ، وفى تلك اللحظة صوب القائد النوميدى « نارهوى » سهما الى ذراع العاشق « ماتو » فأصابته مباشرة ، وما كان من ماتو الا ان انتزع السهم بشراسة وحمل المائدة

الكبيرة ورماها على نارهوى يريد الفتك بـه ، واختفت صلامبو وكهنـة المعبد واختفـى القائد النوميدى .

بعد هذا الحادث ، شعر اشـراف قرطاجة وحكامهـا والمرتـزقة انهـم لـن يصلوا الى نتيجة تحقن بها الدماء ، واستطاعت قرطاجة تخديرهم بتقديم تسبقة الى حين على ان يبتعدوا عن قرطاجة ، وكان ما اتفق عليه ، ولكـن الاتفاقية فشلت بعد قتل قادة قرطاجة لبعض المرتزقة ، وعادت الجحافل من جديد الى قرطاجة تبتغى الفتك والفتك الذريع .

همس الاغريقى « سبنديوس » الاحدب وقد كان يعمل فى قصر صلامبو فى اذن ماتو ببعض كلمات كانت منعرجا خطيرا فى هذه الملحمة . تسلـل ماتو والاحدب من قناة توصل المياه الى داخل (المدينـة ، وبعد صـراع رهيب مع القناة والماء كانا داخل المدينة يسترهم ليل بهيم . اندفع ماتـو داخل معبد تانيت وانتزع الوشاح المقدس عن تمثال ربة القمر تاركا لهـا العراء وغادر المعبـد ، بعد ان جندل احـد الكهنـة بطعنـة مميتـة ، واجتاز المسافة بين المعبد وقصر صلامبو فى ثوان ، وفجأة وجد نفسه فى مخدع حارسة الوشاح ، فاقترب منها وادنى منها المصباح ، وما ان افاقت حتـى رات الربة تانيت امامها مرتدية وشاحها ، فما قدرت على النطق والحركة ، ولم يذهب عنها ذلك الجمود الا بعد ان اصغت الى كلمات ماتو وهى تلهبهـا بنار العالم السفلى ، فاذا بها تـارة تستعطف وطورا تتوعد ، وكانت قـوية الارادة لا تخاف الموت امام النيل من حرمة الالهة فتقدمت منه صارخة به .. هات الوشاح .. ولكن هيهـات ان تلبى لها رغبـة من ماتو الصخرة الصمـاء الناتئة ، وهرع الخدم والعسس اليها بغية الفتـك ، فصـرخت فيهـم فزعـا ورهبـــة ...

ـ لا تلمسوه ، انه يحمل وشاح الربة ، انه يحمل لعنتـه بنفسه ... ان للوشاح ربة وهى كفيلة بالقضاء عليه .. فلها الامر ولها القضاء . اتركـوه . ايها الملعون لتنزل عليك صـواعق الالهة كالجبال وتطحنك طحنا .. عليـك اللعنة يا سارق تانيت .. عليك الف لعنة ولعنة .

انسل ماتو من بين الجموع الى الخـارج ، ومـا ان تـرك اسـوار المـدينة وراءه حتى رفع الوشاح الى اعلى ، فهبت عليه ريح خفيفة ، فرفرف كالراية ، وكانت اشعة الشمس قد اطلت بعـد من الافق فدغدغت زخرفتـه ، فلمعت وكان له بريق واى بريق ، هذا وال قرطاجة من وراء الاسوار ، يبصرون علة

نجاح قرطاجة تنفلت من بيـن ايديهم ، انها اية من آيات الخسران ، اما المرتزقة فقد هللوا من معسكرهم بالنصر المبين ، اما والوشاح في حوزتهم فنصرهم على قرطاجة لا جدال فيه .

تجمع جل ابطال المرتزقة في خيمة « ماتو » وتحالفوا على الوحدة وعلى ان يراس سارق الوشاح الحملة ، وكان نارهوى القائد النوميدى حاضرا ، فهنأ ماتو على شجاعته وتحالف معه على محاربة قرطاجة .

رجع القائد هاميلكار الى قرطاجة بعد الاخبار التى وصلته عن ثورة المرتزقة وأزمع على إفنائهم عن آخرهم اذا هم أصروا على تحدى قرطاجة .

دخل فارس على ماتو فى خيمته صحبة الحارس وما ان غادر الحارس المكان حتى كشف عن وجهه ، انها صلامبو عذراء قرطاجة وحارسة الوشاح اتت الى عرين الاسد فى شجاعة نادرة وفى تصميم صخرى . انها مقدمة على امر عظيم ، فى سبيل استرجاع الوشاح المقدس ، قد تفقد اثمن شىء فى الوجود يمت اليها بصلة الشخصية ، ستفقد حصنها الحصين ، علة طهارتها وشرفها ، ستفقد نظرات الصفاء ومسحة النقاء ، فى سبيل الحصول على الوشاح ستعدم صلامبو الامس لتبعث صلامبو الغد ، ستكسب صفات جديدة وستفقد صفات قديمة انه امر الالهة ، فلها الامر ولها القضاء . كان ماتو يحدق فيها ولا يكاد يصدق ، ان الذى يريده اكثر من الوشاح وأكثر من ثروة قرطاجة ومن حب تحطيم أسوارها على سكانها بين يديه ، تحت قبة خيمته ، تحت سلطانه . عجز عن التعبير بما يجيش به باطنه ، اضطرب وتاه فى بحر من التخمينات التى بعثرت افكاره فعجز عن المبادرة ، ولكن صلامبو انقذته من ذهوله ، لقد ابصرت الوشاح المقدس يشع نوره السماوى تحت فروة اسد ، فتقدمت منه بكل اصرار وعزم ومسته بيد مرتعشة ، عند ذلك حلت عقدة لسان ماتو وصرخ فى فزع :

ـ جئت للوشاح أليس كذلك ؟.. جئت لتتسلمى ، راية القوة ، راية انتصارك على ، فيكون نصرك نصرين ... الاول ضمان تحطيمى واتباعى والثانى انتصارك انت على بالذات ، صلامبو عذراء قرطاجة وحارسة الوشاح المقدس ، وشاح الربة تانيت الهة القمر ، على ماتو الجندى المرتزق الذى يبيع وجوده بحفنة من ذهب ... ولكنى اجهل كيف نسيت انك عاجزة وانت فى حوزتى هنا .. فى هذا المكان .. فى هذه الخيمة التى هى تحت سيطرتى انا لا غير .. قبل ان اسرق الوشاح ، كنت اطمع فى خراب قرطاجة ، اما بعد ذلك والآن فلا حاجة لى بهذا الوشاح

ولا بخراب هذه المدينة الملعونة ، فانت ما اريد ، انت مناى وبغيتي ، انت سبب بقائي الى الآن اتحدى قرطاجة وابطالها واسوارها المنيعة ، انني منتصر وهالك بك انت لا غير .. وشدها بعنف من كتفيها وضمها اليه ، فاحست بانها هالكة لا محالة ، ارادت ملاطفته فلم تفلح ودفع بها الى الارض وجانبها ممزقا القلادة التى كن القرطاجيون يعلقونها في رقاب غذارأهم فاذا وقع لها حادث فان الامر قد مضى وان ابنتهم فقدت عذريتها . في تلك الليلة هجم ... هاميلكار على خيام المرتزقة فاحرقها وافاق ماتو مذهولا وغادر الخيمة ، ولما عاد بعد لحظات كانت صلامبو قد اختفت والوشاح المقدس فاسقط في يده .

التقى الجيشان المتحاربان في صبيحة يوم الغد ، وكل طرف يمني نفسه بنصر ساحق وظهر غبار ثائر من ناحية اخرى ، واشرأبت الاعناق الى هذا الفارس القادم ، وظهر اخيرا ، انه القائد النوميدي نارهوى ، وفرح المرتزقة وعلى رأسهم سارق الوشاح بنصر مبين على قرطاجة بحلول مناصر له شأنه . كانت لنارهوى مطامع كثيرة ومتشعبة ، فهو من جهة يحبذ الزواج من صلامبو واكتساب مستعمرات جديدة بالمنطقة ومن جهة أخرى يريد حطام قرطاجة لانه ببقائها وقوتها يبقى دائما في الصف الثاني وتحت رحمتها ، وعندما استفحل الامر بين قرطاجة والمرتزقة في حروب ضروس ، بقى محتارا الى اى جانب ينحاز ، واختار المراوغة والحيلة ، وبقى ينتظر فرصة العمر ، واخيرا هاهي تظهر في الافق ، ان قرطاجة اظهرت تفوقا على المرتزقة ، وعليه بالانحياز الى الجانب الاقوى .

اسقط في يدى ماتو مرة اخرى ، ان نارهوى اختار الجانب الآخر ، يا له من محتال ، عليه الف لعنة ولعنة .

قدم نارهوى مناصرته الى قرطاجة وفرح هاميلكار وعد هذه البادرة طلائع النصر الكبير ، فضمه الى صدره ثلاث مرات عهد التحالف ، وفي تلك اللحظة وصلت صلامبو الى المعسكر على صهوة جواد ، رافعة الوشاح المقدس الى اعلى ، فلامسته ريح خفيفة ولاعبته امام انظار المرتزقة والقرطاجيين ، فهلل جمع وتوعد جمع ، هذا والقائد هاميلكار يحدق في رقبة ابنته ، وعرف الحقيقة المرة ، وكان ذكيا سريع الخروج من المآزق ونادى نارهوى وبشره بقبول خطبته لعذراء قرطاجة التي تأخرت كثيرا ، وتمت الخطبة في ذلك المكان على الطريقة القرطاجية فقدموا الى صلامبو رمحا ، سلمته لخطيبها وربطوا ابهاميهما بسير من جلد البقر ونثروا القمح على رأسيهما ، انه عقد لا ينفصم الا بقضاء من الالهة .

اصطف اهالى المدينة فى الطرق المؤدية من سجن تحت الارض الى شرفة القصر التى تضم فى كنفها صلامبو ونارهوى فى يوم زواجهما ، تحف بهما اشراف قرطاجة ، ان العيد عيدان ، عيد احتفال بزفاف اشرف بنات المدينة بالقائد النوميدى نارهوى ، اما العيد الثانى فهو مشاهدة القائد الليبى ماتو وهو مقيد اليدين الى الخلف ويسير من سجنه حتى شرفة الزفاف والاهالى تتفنن فى تعذيبه على شرط ان لا يقتل حتى تطول مدة العذاب ، لقد تم الانتصار القرطاجى على المرتزقة واسر قائدهم « ماتو » ولقد حاول جنود هاميلكار بكل ما أوتوا من جهد وحيلة حتى لا يقتل ، الاوامر تقول : انه لا بد من القبض عليه حيا ، حتى لما هم بقتل نفسه كما فعل بعض رفاقه لم يفلح ، فقد عاجله القائد نارهوى بشباكه ، واقتيد هكذا الى سجن قرطاجة المظلم .

اشرأبت الاعناق ، ان قضبان الحديد ترتفع ، ويظهر ماتو وقد كادت تزول معالمه ، ودفعته الاهالى على السير بينها قسرا ، والحجارة تنهال عليه من كل جانب والوخز والعض والكى بالحديد المحمى ، فتارة يسقط وطورا يتحامل على نفسه للهرب من عذاب لا يطاق ولكن هروبه لا معنى له ، لان الجحيم فى كل مكان سار فيه ، فاهالى قرطاجة اعماهم الحقد والنقمة مما فعله بمدينتهم ، فاستحالوا الى زبانية تصلى بنارها سارق الوشاح والهاتك لحرمة الالهة والمعتدى على شرف اشرف بنات قرطاجة والطامع فى خراب مدينتهم،وأخيرا وبعد جهد جبار وصل الى شرفة الزفاف حيث تتصدر صلامبو المجلس ، على يمينها أبوها وعلى يسارها زوجها واشراف ... قرطاجة وكهنتها تحف بهم من كل مكان .

انتصب ماتو منهوك القوى والدماء تنزل من جراحه العميقة وتنبعث منه رائحة احتراق لحمه بالكى الذى المه حتى اشرف على الموت ، وامعن النظر فى صلامبو وصلامبو لا غير ، انها هناك تراقب نهايته ، وخذلته رجلاه فسقط وكان لسقوطه دوى واى دوى فى قلب صلامبو ، وكانت نهاية ماتو وتلتها نهاية صلامبو التى هوت بدورها على ارض الشرفة بلا حراك .

اثنان لمسا الوشاح المقدس فكانت نهايتهما فى وقت واحد ، اثنان ضمتهما خيمة واحدة فكانت الخطيئة ، لكن احدهما اساء الى الالهة والى المدينة اما الثانى فقد اعاد الوشاح الى المعبد الى الهته واعاد الاطمئنان الى المدينة .

الناصر التومى
تونس

لقاء ...

شعر : الحبيب الهمامي

① بين مناضلين :

قابلني في آخر المساء
كان حزينا ، ضائعا
في حزنه الطاغي ، وكان البرد
يدعونا الى مواقد الشتاء
عانقي..كسرني ـ من فرط أشواقه ـ
في أحضانه الصماء
حولني الى شظايا..أطلق العنان للبكاء
شاركته البكاء ، فالاقدار
داست وطني
داست مساجدا ، واشجارا ، وانهارا
وأنبياء
وهذه الأقدار قد ألقت بنا
للنفي والغربة آه يا أخي
زدني عناقا إنني ...
مجزأ أجزاء
زدني عناقا إنني
كريشة في قبضة العواصف الهوجاء

* * *

سألته :
ترى خلقنا عبثا ؟
أم أنها الحياة ؟
تأخذ الشذى منا وتهدينا الى الهباء ؟!
لم يتكلم .. كان مشنوقا بحبل
الذكريات ..
قلت : هل سمعت ؟
قال بلا صوت : أنا انتهيت !
عانقني المسكين من جديد
وقال : قد نعود ذات عيد
ونلتقي على ذراع الوطن المكبل البعيد
ثم اختفى
وانفجرت باريس بالبكاء
وانفجرت بالمطر السماء

② أجيء .. وقد لا أجيء :

أجيء .. وقد لا أجيء
فكل المواعيد هي احتمال
عيون الكلاب
تحاصرني من جميع الجهات
وتجعل موعدنا مثل ...
نجم بعيد المنال

* * *

أجيء .. وقد لا أجيء
فاني المغني
أوزع لحمي على الفقراء
وأزرع قلبي جسرا
يمر عليه رجال النضال
وقد يستحيل وصولي اليك
اذا ما اضطررت

لأزرع روحي شمسا
تنير حقول الزياتين والبرتقال
وتحرس ابطالنا فى شعاب الجبال

* * *

أجىء .. وقد لا أجىء
فكل المواعيد هى احتمال
وبينى وبينك
شعب يموت هباء
وأرض تموت هباء
فكيف أفرق بين الجهاد ؟
وبين وفائى لوعدى ؟
وشيمة قومى الوفاء

* * *

أجىء .. وقد لا أجىء
ليسقى دمى أرض شعبى
وادخل فى موكب الشهداء
اذا مت يا وردتى فاكتبى بدمائى
قصيد رثاء
ضعيه كتاج من الورد
فوق ضريحى
لعل قصيدك يبعث روحى

③ المغنـى :

هو الآن يستقبل الموت
داخل سجنه .. والسجن مجد ..
وتاج المناضل
وكنا نخاف عليه
وكان يقول لنا : مرحبا بالسلاسل

* * *

مضى زمن والمغنى يغنى
لقيده فى ظلمة السجن
للارض للنهر يجرى دما ودموع
لأم تنام كقلبه بين الضلوع
يغنى

* * *

وسجنه أضيق من مشنقه
وجرحه أوسع من بلدى
ولكن صبره أجمل من زنبقه
لذلك كان يغنى

* * *

سألنا البلاد عن الموت
قالت : لقاء الأحبة
كيف اذن يا رفاقى
نعارض موت العصافير والعاشقين
وكيف لقاء الأحبة
يجعلنا نتكسر حزنا ؟
ونبكى الوف السنين ؟

* * *

هو الآن يستقبل الموت
داخل سجنه
عيناه نهرا دموع ونور
يداه الخناجر
تنحب بين حصار السلاسل ...
قلبه قنبلة تشتهى أن تثور
وجرحه أوسع من بلدى ...
يشتهى أن يثور
ولكن سجنه أضيق من مشنقه

* * *

وصبره أجمل من زنبقه
ومات مغنى الوطن
فهل سيجود بمثله هذا الزمن ؟

الحبيب الهمامى

ابن خلدون والتشكيلة الاجتماعية الاقتصادية المغربية في عهد ما قبل الاستعمار

بقلم: خالد المنوبي

ـ 2 ـ (*)

5) تدخل الدولة وغلبتهـــا :

قد يتبادر للاذهان ، وفقا للوصف المتقدم ، وجود نظامين اثنين احدهما اساسه الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ولو بقيود واسناد المنتوج لغايـة دعم المالك سياسيا واجتماعيا والثانى اساسه الملكية غير الخاصة لوسائل الانتاج وموجه لسد حاجيات المنتجين .

وما ذلك الا فى الظاهـر لان النظامين مرتبطان داخل تشكيلـة اجتماعيـة واحـدة من شأن اتصال الحياة فيها أن يشوه كلاهما . فلا محيـد من قراءة الحساب لتدخل الدولة ـ رغم بقائها أجنبية عن تنظيم الانتاج ـ على مستوى اسناد المنتوج فـى شكل جباية غالبا ما تكون بضاعـة وذلك بوصف تلـك الدولة مالكة ساميـة للارض .

كتب ابـن خلدون (ص 337) :

« انما الملك على الحقيقة لمن يستعبـد الـرعية ويجبـى الامـوال ويبعـث البعوث ويحمى الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة ، وهذا معنى الملك وحقيقته فى المشهـــور .

فمن قصرت به عصبيته عن بعضها مثل حماية الثغور او جباية الاموال او بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته كما وقع لكثير مـن ملوك البربـر فى دولة الاغالبة والقيروان وملوك العجم صدر الدولة العباسية » .

(*) تابع لما نشر فى مجلة الفكر : عدد 1 السنة 27 اكتوبر 1981 .

فجلي انها دولة من مشمولاتها الجوهرية اخذ خراج فى شكل جباية مقابل تأمين بعض الخدمات كالدفاع وانجازات اخـرى .

يقـول ابـن خلـــدون (6I7) :

« ان الدول اقدم مـن المدن والامصار وانها انما توجد ثانية (...) ثم اذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيدها بما اقتضته الاحـوال السماوية والارضية فيها ، فعمر الدولة حينئذ عمر لها ، فان كان عمر الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت ، والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ونطاق الاسواق يتباعد وينفسح الى ان تتسع الخطـة وتبعد المسافة وينفسح ذرع المساحة كما وقع ببغداد وامثالها .

ذكر الخطيب فى تاريخه ان الحمامـات بلغ عددها ببغـداد لعهد المامون خمس وستين الف حمام وكانت مشتملة على مدن وامصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الاربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعهـا سوار واحد لافـراط العمران وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية فى الملة الاسلامية وحال القاهرة بعدها فيمـا يبلغنـا لهـذا العهـد » .

فمادة الانجازات تعنى حينئذ مبانى حضرية فى غالـب الاحيان (محـلات اقامة ، مصالح عموميـة كالحمامـات) بما فيهـا من بيوت الديـن . واذا ما استثنينا مصانع الحرفيين فان التجهيزات المعدة للانتاج تبـدو نـادرة الا ما يخص التجهيز المائى فى المناطق المتوسطة بالمدن (حالـة القيروان مثلا) السبب تجده في المعطيات الايكولوجية التى لا تظاهى تلك التى اسفرت عن نمو أنماط الانتاج الاسيوية الخالصة والمفضية الى اشغال هامة فـى البناء التحتى المائى منه بالخصوص .

ما هى المواد التى تسمح بانجاز هذه الاشغال ؟ انها طبعـا الجبايات التى لا تكتمل الدولة بدونها يفيدنا ابن خلدون فى هذا الصدد فيقول (ص 50I) :

« إعلم ان الجباية اول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيـرة الجملـة وآخـر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة والسبب فى ذلك ان الدولة ان كانت على سنن الدين فليست تقتضى الا المغـارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهى قليلة الوزائع لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت وكـذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية وهى حدود لا تتعدى .

.. فاذا استمرت الدولـة واتصلت (..) وذهـب شر البداوة والسذاجـة وتكاثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيـه مـن النعيم والتـرف

فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والاكرة والفلاحين وسائر اهل المغارم ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية ويضفون المكوس على المبايعات في الابواب . (...) اعلم ان الدولة اذا ضاقت جباياتها بما قدمناه في الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصر الحاصل من جبايتها على الوفاء بحاجاتها ونفقاتها واحتاجت الى مزيد من المال والجباية فتارة توضع المكوس على بياعات الرعايا واسواقهم كما قدمنا ، وتارة بزيادة في القاب المكوس ان كان قد استحدثت من قبل ، وتارة بمقاسمة العمال والجباة وامتكاك عظامهم مما يرون انهم قد حصلوا على شيء طائل من اموال الجباية لا يظهره الحسبان ، وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية » .

انها كما ترى جباية تثقل كاهل الفلاحين عبر المحاصيل والمواشي والاراضي والاسواق وتجار المدن وحرفييها عبر اسواقها على حد سواء . تواصل استخلاص الدولة لهاته الجبايات في تونس والجزائر الى غاية القرن التاسع عشر (I_5) ويتجلى ان استدرار الجبايات يقوم به اعوان الدولة ولاة كانوا أو جباة غالبا ما يفوزون بوظائفهم بدفع اثمانها واستمر الشأن هكذا الى غاية القرن التاسع عشر ، كما لم ينقطع تولي رؤساء القبائل استخلاص الجباية وهو ما يجعل النزوع الى الاقطاعية ممكن الظهور اذا ما نزل الهرم بالحكم المركزي ، كتب ابن خلدون (ص 680) :

« فاذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القاصية احتاج اهل امصارها الى القيام على امرهم والنظر في حماية بلدهم ورجعوا الى الشورى وتميز العلية على السفلة ، والنفوس بطابعها متطالبة الى الغلب والرئاسة (...) وقد وقع هذا بافريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لاهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونفطة وقفصة وبسكرة والزاب ، وما الى ذلك سموا الى مثلها (اي منازع الملوك) عند تقلص ظل الدولة عندهم منذ عقود من السنين ، فاستغلبوا على امصارهم واستبدوا بامرها على الدولة في الاحكام والجباية .

(...) وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية ، واستقل بامصار الجريد اهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن علي ونقلهم كلهم من امارتهم بها الى المغرب ومحا من

(I_5) انظر كريم وبن عاشنـو

تلك البلاد اثارهم كما تذكر فى اخباره وكذا وقع بسببته لآخر دولة بنى عبد المؤمن ، وهذا التغلب يكون غالبا فى أهل السروات والبيوتات المرشحين للمشيخة والرئاسة فى المصر ، وقد يحدث التغلب لبعض السفلة من الغوغاء والدهماء ، واذا حصلت له العصبية والالتحام بالاوغاد لاسباب يجرها له المقدار فيتغلب المشيخة والعلية ان كانوا فاقدين للعصابة » .

لنا ان نتسائل هنا عن سبب الانكسار الحتمى لهذه النزعات من جراء بروز حكم مركزى متغلب جديد ان عناصر مهمة للجواب تجدها فى جدلية العصبية . فبخلاف اوربا ، لا احتكار او شبه احتكار فى المغرب لوسائل مباشرة السلطة العمومية ذلك ان اغلبية الرعاة وسكان الجبال مقاتلون تجمعوا قبائل تحركها العصبية فهناك ضرب من ضروب الديمقراطية العسكرية لا قوى مقاتلة فيها غير القبائل التى تستند عليها كل الدعوات السياسية سواء اكانت تهدف الى دعم الحكم المركزى القائم امام مناوئية أم الى قلب الدولة من قبل طامعين جدد .

وهكذا فان كل قبيلة تضم عنصرين متحدين متضادين لا تخلو منها بنى الانتقال الاجتماعية — السياسية من المجتمع الفاقد للطبقات الى المجتمع الطبقى الا وهما نفوذ القائد والنزعة القبلية للتساوى التى لا يستقيم ذلك النفوذ بدونها وتسعى الارستقراطية القبلية الى اتمام حقيقتها فتظهر وكأنها طبقة تتناقض مصالحها مع مصالح بقية اعضاء القبيلة بصنيعها هذا تنكر ذاتها ويحصل النكران الاوفى لنفوذها هذا عندما تتأسس دولة تحل علائق التميز والخضوع محل علائق المساواة الاولى فتتاكل القبيلة الغالبة ولا مناص عندئذ فى ذلك المحيط من الديمقراطية العسكرية من ان تستغلب قبيلة او عصبة قبائل سلمت عصبيتها من المتناقضات الداخلية باقى القبائل .

وما لم تؤسس قبيلة دولة فلا خوف على توازنها الداخلى القائم على تواجد نفوذ رئيسها ونفوذ اعضائها ولا على سطوتها . جاء فى مقدمة ابن خلدون (ص 270) :

« ان العرب اكثر بداوة من سائر الامم وابعد مجالا فى القفر واغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش ، فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لايلافهم ذلك وللتوحش ، ورئيسهم محتاج اليهم غالبا للعصبية التى بها المدافعة فكان مضطرا الى احسان ملكتهم وترك مراغمتهم ، لئلا يختل عليه شأن عصبيته ، فيكون فيها هلاكه

وهلاكهم وسياسة الملك والسلطان تقتضى ان يكون السائس وازعـا بالقهـر والا لم تستقم سياستـــه » .

ينشأ عـن ذلـك افتقـار للاستقـرار السياسى : 10 دول فـى 10 قـرون بالمغرب الاوسط و 9 فى المغرب الاقصى و 5 فى افريقية .

لكن ينتج عن ذلك ايضا استبداد المؤسسة الدولية بالعقول فالدولة يعاد بناؤها بنفس الحرص الـذى يقضى الى هدمهـا حتى ان كل مـا فى المجتمـع يعرف بالرجوع الى الدولـة وحال المخضعين (قبائل المخزن وهو ما يشير الى الطابع الخراجي الواضح للعلاقات الاجتماعيـة اذ المخزن يصلح لخـزن الخراج) هو تماما حال المنشقين (قبائل بلاد السيب وهـو ما يفيد شرودهـا عـن الدولـــة) .

6 ـ الانتـــاج الحرفـى السلعـى :

كان الانتاج السلعى بما لايدع مجالا للشك مزدهرا فى المراكز الحضرية بالمغرب . ولكـن هاته الحرف كـانت فى خدمـة الطبقـة المسيـرة للدوليـة وبشكل لاحق ذوى الشوكـة من رؤساء القبائل الخادمين للدولـة منهـم او المنشقين . كتب ابن خلدون (ص 514) :

« الدولة والسلطان هى السوق الاعظم للعالم ومنـه مادة العمران ، فـاذا احتجن السلطان الاموال او الجبايات او فقدت فلم يصرفها فى مصارفها قـل حينئذ ما بايدى الحاشية والحاميـة ، وانقطع ما كان يصل منهم لحاشيتهـم وذويهم ، وقلت نفقاتها جملة وهم معظم السياح فى المدن ونفقاتهم اكثر مادة للاسواق ممن سواهم فيقع الكسـاد حينئـذ فى الاسواق وتضعف الارباح فى المتاجـر » .

يصنف ابن خلدون فى هذا الصدد الانتاج الصناعى الـى صنفين : حرف انتاج الخيرات الضرورية وتجدها فى كل تجمع حضرى (ص 679) :

كالخياط والحداد والنجار وامثالها وحرف شؤون الترف (ص 679)

« ما يستدعى لعوائد الترف ، واحواله فانها توجد فى المدن المستبحـرة فى العمارة مثل الزجـاج والصائغ والدهـان والطباخ والصفـار والفـراش والذباح وامثال هذا » وهاتـه الحرف لا تـزدهـر الا فى العواصم الاميريـة ونموها رهين نمو الدولة نفسها فالدولة تستقطب النشـاط السلعى البسيط سواء فى الميدان القضائى (ص 665) :

« ولهذا تجد فـى الامصار التى فى القاصية ولـو كانت موفـورة العمران تغلب عليها احوال البداوة وتبعد عن الحضـارة فى جميع مذاهبهـا ، بخلاف المدن المتوسطة فى الاقطار التى هى مركز الدولة ومقرها ، وما ذلـك الا لمجاورة السلطان لهم وفيض امواله فيهم كالماء يخضر ما قـرب مـنه الى ان ينتهى الى الجفوف على البعد وقد قدمنا ان السلطات والدولة سوق للعالم ، فالبضائع كلها موجودة فى السوق وما قرب منه واذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة».

او فـى المحور الزمنـى (ص 618) :

« واما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة ، فاما ان يكون لضواحى تلك المدينة وما قاربهـا من الجبال والبسائط باديـة يمدهـا العمـران دائما ، فيكون ذلك حافظا لوجودها ويستمر عمرهـا بعد الدولـة كمـا تراه بفـاس وبجاية من المغرب ، وبعراق العجم من المشرق الموجـود لهـا العمران من الجبال ، لان اهل البداوة اذا انتهت احوالهم الى غاياتها من الرفه والكسب ، تدعو الى الدعة والسكـون فى طبيعـة البشر ، فينزلـون المـدن والامصـار ويتأهلون واما اذا لم يكن لتلـك المدينـة المؤسسة مادةتفيدهـا العمـران بترادف السكان مـن بدوها ، فيكـون انقراض الدولة خرقـا لسياجها فيزول حفظها ، ويتناقض عمرانها شيئا فشيئا الى ان يبذعـر (يتفـرق) ساكنهـا وتخرب ، كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بنى حماد بالمغرب وامثالها فتفهمـه » .

وهكذا فان الظروف الايكولوجية تؤثر فى تحديد مستوى الفـائض الذى تنتجه ضواحى المدينة وما قاربها من البوادى لكن المدن والانشطة بها غالبا ما تكون فى المغرب مجرد معسكرات اميرية مصطنعة الاقامة ومتوقفة حياتها على الفائض المجلوب الى مركز الدولة الخراجية والارض المندوحة لازمـة لكى يكون هذا الفائض ذا بال فى جزئه الداخلى عـلى الاقـل اذ هى الوحيـدة التى تقدر على تغذية سوق عظمى (ص 621) :

« قد قدمنا ذلك فى اثار الدولة من المبانى وغيرها ، وانمـا تكون علـى نسبتها وذلك ان تشييـد المدن انمـا يحصل باجتمـاع الفعلة وكثرتهـم وتعاونهم ، فاذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حشر الفعلـة فى اقطارها وجمعت أيديهم على عملها » .

وفى موضع آخر يقول ابن خلدون (ص 649) :

« عرف وثبت ان الواحد مـن البشر غيـر مستقل بتحصيـل حاجاته فى معاشه ، وانهم متعاونون جميعا فى عمرانهم على ذلك ، والحاجة التى تحصل

بتعاون طائفة منهم تشتد ضرورة الاكثر من عددهم اضعافا ، فالقوت من الحنطة مثلا لا يستقل واحد بتحصيل حصته منه ، واذا انتدب لتحصيله الستة او العشرة من حداد ونجار للالات وقائم على البقر واثار الارض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح ، وتوزعوا على تلك الاعمال او اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت ، فانه حينئذ قوت لاضعافهم مرات ، فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم » .

لاحظ كم رائع هو هذا التعريف للزائد او الفائض الاجتماعي .

7) **نمو القوى الانتاجية :**

الفقرة المتقدمة واستشهادات اخرى سابقة تفيد بجلاء نمو القوى الانتاجية مرتبط ارتباطا مباشرا بالوضع الديمغرافي من اجل الدور الجوهري الذى تلعبه قوة العمل فى حضيرة الانتاج (16) وهو امر شائع فى التشكيلات ما قبل الراسمالية يقول ابن خلدون (ص 689 :

« وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب لكثرة الاعمال التى هى سببه ... والمكتسبات كلها او اكثرها انما هى قيم الاعمال الانسانية » وفى ص 660 :

« واعتبر حال الرفة من العمران فى قطر افريقية وبرقة لما خف سكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت احوال اهلها وانتهوا الى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها فقلت اموال دولها بعد ان كانت دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتساع الاحوال فى نفقاتهم واعطياتهم حتى لقد كانت الاموال ترفع من القيروان الى صاحب مصر فى حاجاته ومهماته وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب فى سفره الى فتح مصر ألف حمل من المال يستعد بها لارزاق الجنود واعطياتهم ونفقات الغزاة .

وقطر المغرب وان كان فى القديم دون افريقية فلم يكن بالقليل فى ذلك وكانت احواله فى دول الموحدين متسعة وجباياته موفورة ، وهو لهذا العهد قد اقصر عن ذلك القصور العمران فيه وتناقصه ، فقد ذهب من عمران البربر فيه اكثر ونقص عن معهوده نقصا ظاهر محسوسا وكاد ان يلحق فى احواله بمثل احوال افريقية بعد ان كان عمرانه متصلا من البحر الرومى الى بلاد السودان فى طول ما بين السوس الاقصى وبرقة وهى اليوم كلها أو اكثرها قفار وخلاء وصحارى ، الا ما هو منها بسيف البحر او يقاربه من التلول »

---

(16) حضيرة الانتاج = Procès de production

لكن الاستنتاج القائل بان المغرب انذاك بلاد مجاعة غير جائز (17) (ص 656) :

«ويحسب الناس اذ سمعوا بغلاء الاسعار في قطرهم انها لقلة الاقوات والحبوب في أرضهم ، وليس كذلك ، فهم أكثر أهل المعمور فلحا فيما علمناه واقومهم عليه ، وقل ان يخلو منهم سلطان او سوقة عن فدان او مزرعة او فلح الا قليل من اهل الصناعات والمهن او الطراء على الوطن من الغزاة المجاهدين ، ولهذا يختصهم السلطان على عطائهم بالعولة وهي اقواتهم وعلوفاتهم من الزرع وانما السبب في غلاء سعر الحبوب عندهم ما ذكرناه . ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاء منابتهم وطيب ارضهم ارتفعت عنهم جملة في الفلح مع كثرة وعمومه ، فصار ذلك سببا لرخص الاقوات ببلدهم »

لكن الفائض المستخرج من الارض وهي الوسيلة الرئيسية للانتاج لا لا يزيد كثيرا عن سد الخلة وضرورة المعاش مما يضعف الفائض الاجتماعي (ص 662) :

« واما فوائد العقار والضياع فهي غير كافية لما لها في حاجات معاشة ، اذ هي لا تفي بعوائد الترف واسبابه وانما هي في الغالب لسد الخلة وضرورة المعاش .

والذى سمعناه من مشيخة البلدان ان القصد باقتناء الملك من العقار والضياع انما الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعفاء ليكون مرباهم به ورزقهم فيه ، ونشوؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب فاذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم .

هذا قصد المترفين في اقتنائه واما التمول منه واجراء احوال المترفين فلا ، وقد يحصل ذلك منه للقليل او النادر بحوالة الاسواق وحصول الكثرة البالغة منه ، والعالي في جنسه وقيمته في المصر ، الا ان ذلك اذا حصل ربما امتدت اليه اعين الامراء والولاة واغتصبوه في الغالب او ارادوه على بيعه منهم ونالت اصحابه منه مضار ومطالب » .

لذلك فان الفائض المتولد عن نمو القوى الانتاجية يبدو رديئا في المغرب بالمقارنة الى جهات اخرى من العالم خصوصا في بلدان الاندلس ومصر المجاورة حيث ظروف ايكولوجية اكثر ملائمة (ص 668) :

« فاما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد

---

(17) ذلك ان المغرب ما زال في بداية القرن التاسع عشر مصدر حبوب لاوربا .

الاندلس وانتقل الكثير من اهلها اليهم طوعا وكرها ، وكانت من اتساع النطاق ما عملت فكان حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من اهل الاندلس ثم انتقل اهل مشرق الاندلس عند جالية النصارى الى افريقية فابقوا فيها وبامصارها من الحضارة اثارا ومعظمها بتونس فامتزجت بحضارة مصر ، وما ينقله المسافرون من عوائد ، فكان بذلك للمغرب وافريقية حظ صالح من الحضارة عفى عليه الخلاء ، ورجع اعقابه وعاد البربر بالمغرب الى اديانهم من البداوة والخشونة ، وعلى كل حال فاثار الحضارة بافريقية اكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد اهل مصر لكثرة المترددين بينهم »

بيد ان هذا الانقباض ناتج عند استيفاء التحليل عن استعمال الفائض الذى يؤول الى الطبقة الدولية ومن يدور فى فلكها بالمدن فتهريقه فى استهلاك مواد الترف (ص 502) :

« واذا استمرت الدولة واتصلت ، فتعاقب ملوكها واحدا بعد واحد واتصفوا بالكيس وذهب شر البداوة والسذاجة وخلقها من الاغضاء والتجافى وجاء الملك الغضوض والحضارة الداعية الى الكيس ، وتخلق اهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف » .

لكن امكانيات توليد الفائض الداخلى لا تكفى لما يميل اليه كل حكم قائم من استهلاك جنونى بل قل استهلاك الف ليلة وليلة وهو ما يدفع هذا الحكم الى ارتكاب شتى انواع المظالم والاستغلال الفاحش للمنتجين مما يؤدى الى الدمار وخراب العمران فى آخر المطاف (ص 518) :

« فجباة الاموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة ، والمنتهبون لها ظلمة ، والمانعون لحقوق الناس ظلمة ، وغصاب الاملاك على العموم ظلمة ، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذى هو مادتها لاذهابه الامال من اهله » وفى ص 519 :

« ومن اشد الظلمات واعظمها فى افساد العمران تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق ، وذلك ان الاعمال من قبيل المتمولات كما سنبين فى باب الرزق والكسب لأن الرزق والكسب انما هو قيم اعمال أهل العمران ، فاذا مساعيهم واعمالهم ومتمولاتهم ومكاسب لهم ، بل لا مكاسب لهم سواها ، فان الرعية المعتملين فى العمارة انما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك ، فاذا كفوا العمل فى غير شأنهم واتخذوا سخريا فى معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر وذهب لهم حظ كبير من معاشهم ، بل هو معاشهم بالجملة ، وان تكرر ذلك عليهم افسد

امالهم فى العمارة وقعدوا عن السعى فيها جملة فادى ذلك الى انتقاض العمران وتخريبه » .

وفى موضع آخر يقول ابن خلدون فى باب الرزق (ص 691) :

« المعاش امارة وتجارة وفلاحة وصناعة فاما الامارة فليست بمذهب طبيعى للمعاش » وذلك « بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرما وجباية » .

ومحصل القول ان الطبقة الدولية ليست فقط غير منتجة اذ تقتصر على سلب الزائد فى المنتوج الاجتماعى ولكنها استعملت الفائض الذى يساق الى ايديها لغايات غير منتجة كذلك .

8) **التجارة البعيدة :**

يعرف ابن خلدون هذا النوع من النشاط قائلا (ص 715) :

« نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو فى شدة الخطر فى الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم ارباحا واكفل بحوالة الاسواق لان السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها أو شدة الغرر فى طريقها واذا قلت وعزت غلت اثمانها ، (...) ولذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول الى بلاد السودان ارفه الناس واكثرهم اموالا ، لبعد طريقهم ومشقته واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش ، فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء وكذلك سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجار من تناقلها ويسرع اليهم الغنى والثروة من اجل ذلك ، وكذلك المسافرون من بلادنا الى المشرق لبعد الشقة ايضا » .

وواضح ان هذا الصنف من التجارة يمكن طبقة التجار من الاستيلاء على فائض متولد عن ربط الاتصال بين تشكيلات تجهل بعضها البعض لكنه كغيره من الانشطة خاضع بدوره الى الحكام (ص 713) :

« فان كان جريئا على الخصومة بصيرا بالحسبان شديد المماحكة مقداما على الحكام ، كان ذلك اقرب له الى النصفة بجراءته منهم ، ومماحكته والا فلا بد له من جاه يدرع به يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على انصافه من معامليه فيحصل له بذلك النصفة فى ماله طوعا فى الاول وكرها فى الثانى .

واما من كان فاقدا للجراءة والاقدام من نفسه فاقدا الجاه من الحكام فينبغى له ان يجتنب الاحتراف بالتجارة ، لانه يعرض ماله للضياع والذهاب ويصير ماله للباعة ، ولا يكاد ينتصف منهم ، لان الغالب فى الناس وخصوصا الرعاع والباعة شرهون الى ما فى ايدى الناس سواهم متوثبون عليه ، ولولا وازع الاحكام لاصبحت اموال الناس نهبا » .

فالقاعدة العامة حينئذ ان تكون للتجار رابطة وثيقة مع الطبقة المسيرة او ان يكونوا من افرادها ويسارهم ناشىء عن منزلة الوسيط الاجباري الذي يحتلونه في السوق الامية (ص 702) :

و « فاقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره الا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهؤلاء هم اكثر التجار ، ولهذا تجد اهل الجاه منهم يكونون ايسر بكثير » .

انها لظاهرة عامة في التشكيلات الخراجية الشرقية والافريقية لم تنقطع طوال الفترة التي تهمنا فقد جمع يوسف صاحب الطابع وزير حمودة باشا باي وكاتبه يونس الجربي ثروات طائلة فاقت حتى ميزان الدولة . وبالاضافة الى التجارة المشروعة تجدر الاشارة الى القرصنة وهي ايضا بمثابة ضرب من ضروب التجارة رغم عدم مشروعيتها والقائمون بها مجهزون من رجال الحكم او من المقربين اليهم .

من ذلك ان دولة البايات ذهبت الى حد قبول جزي في شكل هدايا يسلمها قناصل الدول الاوربية الشمالية منها بالخصوص المفضلين شراء السلم مع الباي على السعي المريب وراء ابادة القرصنة التونسية . وبديهي ان وارد القرصنة رهين مدى تحكم الدول المغربية في البحار وقد كادت السيطرة الاسلامية في البحر المتوسط ان تكون تامة اثر المد الاسلامي على ضفاف المتوسط وتجسمت باحتلال كل الجزر الكبيرة في الحوضين الغربي والشرقي ثم تلتها فترات من المد والجزر كان للمغرب فيها حظ اوفر منه في المشرق وفي زمان ابن خلدون فقد الجزء الاوفر من التقاليد البحرية وترك التحكم في البحر الى النصارى .

ولم يحصل شيء من التوازن الا مع بروز سطوة آل عثمان مما سمح للقرصنة المغربية من توفير دخل ذي بال الى اصحاب الحكم حتى بداية القرن التاسع عشر .

9 ـ تمفصل المحافل :

لقد اسلفنا ان ملكية وسائل الانتاج تضبط طبقا للشرع القرآني والمؤسسات المنصوص عليها به . كما بينا ان للدولة الباع الطويل في النظام الاقتصادي للمجموعات وكذلك في نمط الانتاج السلعي البسيط او في تجارة المسافات البعيدة وهو ما يبرر حديث بعضهم عن الاستبداد الشرقي .

الواقع انه طبيعي ان تدور الحضارة في مثل هاته المجتمعات في فلك الدولة اذ الدولة هي التي تتولى تجميع الفائض واعادة توزيعه حسب مشيئتها لكنها تحتاج دائما الى مذهب يشد ازرها مصدره الدين بطبيعة

الحال والسياسة والدين كانا منصهرين حتى ان الدعوات السياسة كانـت تقوم دائما فى شكل دعوات دينية . جاء عند ابن خلدون (ص 282) :

« ان الدعوة الدينية تزيد الدولة فى اصلها قوة على قوة العصبية والتى كانت لها من عددهـــا » .

وهو ما يفيد تفوق المحفل المذهبى لكن سرعان ما يلاحظ ابـن خلدون (ص 283) :

« ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم » بعبارة اخـرى فان الدعـوة الدينية انما هى شكل تتخذه النضالات الاجتماعية وليس العكس وتقريـر هاته الاخيرة راجع فى نهاية الامر الى الكفاح من اجل الاستيلاء على الفائض الاجتماعـــــى .

والدولة نفسها مع كونهـا الغاية الظاهرة لكل عمل سياسى ـ دينى مـا هى الا مؤسسة من البنـاء الفوقى مرتبطة جدليـا بالقاعدة الماديـة التـى افرزتهـا (ص 678) :

« ان الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ لوجودهـا ، وقـد تقرر فـى علوم الحكمة انه لا يمكن انفكـاك احدهما عن الآخر ، فالدولـة دون العمران لا تتصـور ، والعمران دون الدولة والملك متعذر لما فى طباع البشر من العدوان الداعى الى الوازع فتتعين السياسة لذلــك » .

10 ـ الخاتمــــة :

تلك هى الخطوط العريضة للتشكيلة المغربية فى عهد ما قبل الاستعمار انظمة انتاج مجموعات فـى انعزال او تكاد (18) واخـرى سلعيـة بسيطـة تسيطر الدولة عليها جميعا يضاف اليها نظام للتجارة البعيدة راضخ الـى الدولـة كذلــك .

ولـم يخل ذلـك المجتمع مـن العبودية لكـن استعمالها كـاد ينحصـر فى الاشغال المنزلية (19) ولم تصرف فى حقل الانتاج الا فيما ندر (فى الثغـور الصحراوية بالواحات) .

ورغم ان ابن خلدون اشار الـى بعض الانجازات فان الدول المغربية لم تنجز اشغالا كبرى من شأنها ان تنظر بما ينجز فى انماط الانتاج الاسيوية لكن ذلك لا يهم كثيرا لانه ثبت من الوجهة التاريخيـة ان الاشغـال الكبـرى لم تقرر وجود الدولة بل ان قيام الدولة (لغرض دفع الغزاة) هو الذى جعل

---

(18) كان التبادل بين المدينة والريف موجودا ولكنه محدودا على مـا يبـدو
(19) انظر برنشفيق (بلاد البربر الشرقية فى العهـد الحفصى) ص 166 .

الاشغال المائية ممكنة . يبدو الخراج الذى تحتجزه الدولة فى شكل جبايات بالخصوص غير كاف بسبب رداءته لكى يكون القاعدة المادية اللازمة لسلطان اعظم أو لنيل حظ وافر من الحضارة . لكن ذلك لم يمنع قيام دول وحضارات ذات شأن والفضل يرجع لابن خلدون الذى بين بعضا من الاسباب الداخلية لعدم استقرارها وهى عوامل لعبت بالتاكيد دورا حاسما عند استيفاء التحليل لتفسير الازمة العميقة التى لم يفلح المغرب فى اجتنابها منذ القرن الرابع عشر اى منذ عهد ابن خلدون .

وفى البحث عن اصل هاته الازمة لا مجال الى اهمال انتقال طرق الذهب المؤدية الى السودان نحو الشرق هو ما يميل ايف لاكوست الى تاكيده (21) .

ذلك ان ازدهار الدول المغربية الاولى انطلق تدريجيا حوالى القرن والصين وناحية الشمال كلها واقطارها وراء البحر الرومى لما كثر ممالك فاس وتاهرت بالمغرب الاقصى والقيروان بافريقية وحرى بالاعتبار ان دولا قبلية وتجارية فى جوهرها تستمد ثروتها من فائض خارجى المصدر تسوقه اليها مكانة الوساطة التى تشغلها بين تشكيلات اخرى مما يبرز الطابع الاصطناعى لهاته الدول . الا ان ابن خلدون لم يعتن بذلك لكنه تفطن لامر غريب فالتشكيلة المغربية وهى الاقرب الى بلاد الذهب لم تكن اغنى التشكيلات فى عهدها (ص 659) :

« واعتبر ذلك باقطار المشرق ، مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها واقطارها وراء البحر الرومى . لما كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم ، وعظمت دولتهم وتعددت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرهم واحوالهم . فالذى نشاهده هذا العهد من احوال تجار الامم النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب فى فهمهم واتساع احوالهم اكثر من ان يحيط الوصف ، وكذا تجار اهل المشرق وما يبلغنا من احوالهم وابلغ منها احوال اهل المشرق الاقصى من عراق العجم والهند (...) ويحسب من يسمعها من العامة ان ذلك لزيادة فى اموالهم او لان المعادن الذهبية والفضية اكثر بارضهم ، او لان ذهب الاقدمين من الامم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك .

---

(20) تجب الاشارة الى عامل آخر فبداية من انهيار دولة الموحدين فى القرن الثالث عشر عم المذهب السنى بحيث لم يعد يتسنى لاية دولة التفرد باية دعوة مذهبية وهو عامل اضافى من عوامل التراجع .

فمعدن الذهب الذى نعرفه فى هذه الاقطار انما هو من بلاد السودان وهى الى المغرب اقرب ، وجميع ما فى ارضهم من البضاعة فانما يجلبونه الى غير بلادهم للتجارة ، فلو كان المال عتيدا موفورا لديهم لما جلبوا بضائعهم الى سواهم يبتغون بها الاموال ، ولاستغنوا عن اموال الناس بالجملة » .

وعلى خلاف المدرسة التجارية فان ابن خلدون لا يعير للمعادن الثمينة الا دورا هينا فى عمليات خلق الثروة (ص 700) :

« فاعلم ان الاموال من الذهب والفضة والجواهر والامتعة انما هى معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن ، والعمران يظرها بالاعمال الانسانية ويزيد فيها او ينقصها ، (...) فان نقص المال فى المغرب وافريقية فلم ينقص ببلاد الصقالية والافرنج ، وان نقص فى مصر والشام فلم ينقص فى الهند والصين وانما هى الالات والمكاسب والعمران يوفرها او ينقصها (ص 700) » .

واذ يبدو انه غاب عن ابن خلدون ان موقفا ملائما للوساطة يمكن ان يكون استثنائيا معينا مدرارا للثروة كما كان شأن المغرب من القرن التاسع الى القرن الثالث عشر للميلاد فابن خلدون مصيب فيما ذهب اليه من محاولة كشف اسرار الثروة فى نمو القوى الانتاجية فيأتى تصوره عصريا فى اتم معناه ولا يزيد ارتباط نمو القوى الانتاجية الوثيق بالعلائق الاجتماعية الا تأييدا لعمق التشخيص الخلدونى للمجتمع المغربى فى عصره وهو تشخيص يجوز سحبه حسب كل احتمال على كافة المجتمعات التى سيؤول امرها الى الاستعمار المباشر او غير المباشر وهو ما يتجاوز الحتمية الايكولوجية ذلك ان محرك التاريخ اى حرب الطبقات تجده معطلا فى المجتمع المغربى وهو مجتمع ديمقراطية عسكرية قوامها تحالف رؤساء القبائل والتجار الذين يؤلف مجموعهم الاستقراطية فيكون مجتمع الحد الفاصل بين المجتمع الخالى من الطبقات والمجتمع الطبقى .

وبينما وجدت مجموعة البورجوازيين فى اوربا (من حرفيين وتجار) نفسها فى نزاع مع طبقة النبلاء مما دفعها الى فرض وجودها بصفة جدلية وتنمية القوى الانتاجية لغاية احلال علائق انتاج جديدة لصالحها فلم تتوفر فى المغرب بالخصوص الشروط الضرورية لدفع التجار الى تكوين برجوازية حقيقية اذ كانوا حلفاء الطبقة المسيطرة او منصهرين فيها .

ولم يزد اندماج السواد الاعظم من المنتجين فى نمط المجموعات القبلية او القروية للانتاج الا استقرارا وامام حظ اوربا الفريد تحول هذا الاستقرار الى احتجاز منذر بالتخلف قد يتبادر الى الذهن أنه كان فى امكان الدولة تحمل اعباء تحول المجتمع وهو امر غير مقبول لغياب الدوافع الموضوعية لذلك وبالعكس من ذلك فان الدولة وفقا لطبيعتها المسيطرة تنزع الى اتمام حقيقتها بالقضاء على كل القوى الاجتماعية الجديدة فى المهد . فتكثر الاحتكارات الدولية (ص 506) :

« فمضايقة الفلاحين والتجار فى شراء الحيوان والبضائع وتيسير اسباب ذلك ، فان الرعايا متكافئون فى اليسار متقاربون ، ومزاحمة بعضهم بعضا تنتهى الى غاية موجودهم او تقرب ، واذا رافقهم السلطان فى ذلك وماله اعظم كثيرا منهم ، فلا يكاد احد منهم يحصل على غرضه فى شيء من حاجاته ، ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد ، ثم ان السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك اذا تعرض له غضا او بايسر ثمن ، او لا يوجد من يناقشه فى شرائه فيبخس ثمنه على بائعه » .

بقى سؤال : لم لم يدفع جانب الحرفيين او التجار الذى لم يتمكن من الاندماج فى الارستقراطية الى فرض وجوده بشكل مستقل وبالتالى الى فتح افاق ديناميكية جديدة للمجتمع ؟ انه سؤال من الاهمية بمكان وسر التخلف كامن بدون شك فى الجواب عنه .

خالد المنوبى

المراجـع :

(1) **ابن خلدون** : «المقدمة» (ثلاثة اجزاء) دار الكتب اللبنانى . بيروت 1956

(2) **سمير امين** : « Le Développement inégal » Minuit 1974

(3) **ع . بن عاشنو** : « La formation du sous-développement de l'Algérie 1830 / 1960 » Alger 1978.

(4) **ر . برانشفيغ** : « La Berberie orientale sous les hafsides. Des origines à la fin du XVe siècle » Paris 1947.

(5) **م . كريم** : « La Tunisie précoloniale » S.T.D. Tunis 1973.

(6) **ا . لاكوست** : « Ibn Khaldoun, naissance de l'Histoire, passé du Tiers Monde » Maspéro (4ème édition) Paris 1978.

(7) **م. رودنسن** : « Islam et capitalisme » Le seuil - Paris 1966

الرّحيل إلى العيون المرافئ

شعر: حلمي الزواتي
(الكويت)

« انا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا »

الحلاج

— 1 —

لعينيك أبدأ هذا النشيدَ
وابحر نحوَ العيون التي أوْجعتني
لقلبك تُشرع أبواب قلبي
ويبزغ فجري وتُشرق شمسي
وتفنى الجراحُ التي أحرقتني
وَيشتعل البحر موجاً ويكبر فينا ..
يُمازجُ ما بين روحي وَحلْمِك
يذهبُ في أفق اخضر اللون .. يمضي
ويسألُ أهلوك عَني
مَن العاشق المُغتربْ ؟
فاغمدت حزنا بقلبي
بكيتُ ... بكيتُ ... بكيتُ
وكانَتْ يداك تلملمُ جُرحي
تُعيد التواصل ما بين روحي وأرْضي
وينتفض القلبُ حُزناً
أنا الثائر العاصفُ المُلتهبْ
وأغمدت حبك شوكا بقلبي
وأغمدت حبك ريحا بخصري
وصرتُ الرياح وصرتِ الجناحَ
وفتشتُ عنك الجراحَ وكنتُ اغني

— 2 —

لعينيك أبدأ هذا النشيدَ
أجدّد موتِي وبعثي
وَأنتِ تجيئين بَحراً
تجيئين عشباً
تجيئين رملا يفجّر صحراء حزني
تضوغين بالصمتِ اسمي ورسمي
وماذا تَقولُ النوارس ؟
ماذا تقول البحار القديمةُ

عن عاشقين على صهوة الموج
جاءا بلا موعد للتلاقي ؟
وماذا تقول النوارس ؟
ماذا تقول العيون التي داهمتني ؟
وأنتِ تجيئين خصباً لجدبي
وانت تجيئين حلما تجيئين سيفاً
تجيئين عطرا يطهر أكمامَ زَهري
لعينيك وحدك أبدأ هذا الرحيلَ

- 3 -

ولست سواك أغني
وَصلتُ أخيراً ، جَثوتُ ،
غفوت على ركبتيك حلمت كثيراً
أعدت صياغة هذا الوجود
وأنشدت شعرا عن الارض
عن موسم البرتقال
عن الحب والعشق والعنفوان
وما كنت وحدي وما كنت أدري
وما كنت أعلم أن المسافة
ما بين يافا ومدخل جرحي
تساوي العلاقة بين النجوم وشطآن بحري
وما كنت أعرفُ
أن السياط التي ألهبتني التي مزقتني
تحاول تدجين شعري وما دجنتني
وحين ترجلت عن صهوة الجُرح
عن قمة الرمح
كانت يداكِ تعيد الحياة
وتلغي جميع مواعيدِ قتلي

- 4 -

لعينيك يبتدأ العشق نَهراً
وينفجر الان صدري
وأبدأ هذا العناق سُيولا
من التين واللوز والزعتر الجبليّ
وألبس عريك باقة ورد
وخصلة شعرٍ على صدركِ المخمليّ
ألوذُ بقلبك ، أصعد هذا الزمان
الرديء وما كنت وحدي
وكيفَ أكون وحيدا
وأنتِ تعيدين عهدي
دَعوتك باسمك الا تغيبي
لأن غيابك موتي وحبك رمحي
وصدرك حقل من القمح
بحر أسافرُ فيه وأرسي
وصدرك زوج من الخيلِ
ما روّضته رجالُ القبيلة
ما اسرجته الرّياحُ العقيمةُ
ما كان يوماً لغيري
دعوتك باسمك ألا تغيبي
دعوتك باسمك الا تغيبي

المخدوعون ...

قصة : حياة بن الشيخ

– 2 – (*)

فى احد الشوارع المظلمة يسيران ونسائم الليل تعبث بوجهيهما ، يلاحقان امرا مجهولا ..

– لا اتعس من محزون أجبر على الضحك .. ولا أشقى من جاد اجبر على العبث هذا ما كانت تردده دائما .. كم هى غريبة !!

– أظن الكاس الاخيرة كان لها المفعول الغير المرجو . ماذا دهاك أأنت متعب ..؟ ام .؟

– ان انحنيت لقلبى عشت مصفوعا . وان سرت خلف عقلى كنت مخدوعا ابحث عن درب واسير فى درب آخر . اعيش أناضل من اجل رأى فكرة ثم ادفع لآتى بما يخالفها . ضياع . فراغ . عبث . ثرثرة .. ثرثرة سقيمة .. رأيها ذاك لا رأيى .. انا لم اتوصل بعد حتى ان اكون رأيا ..

أنتم العرب كم تعذبكم مشاكلكم الشخصية مهما كانت تافهة أنتم سطحيون تسبحون دوما فوق سطح مياه الحياة دون ان تحاولوا الغوص مرة ولو للتجربة .. ربما الخوف هو الذى يشدكم أم هى المعتقدات هى التى تشل خطاكم وتكبل مصائركم .. ذرة من الواقعية ، وانطلاقة حاسمة لن تقتلكم ..

« الواقع .. ألا يدرى هذا المخرف ان العربى خلق بلا واقع ، ولو وجد له واقعا لذاب الما ورهبة على ما فات ، وما سيأتى الواقع .. الا يعلم ان حياتى

(*) تابع لما نشر فى الفكر : عدد 1 السنة 27 أكتوبر 1981 .

ما تزال رغم كل شيء بين يدى أبـي . ونزوات أختـي . واقوال الجيران .. وخرافات عائلتـي .. وتقلبـات مجتمعـي ، وظروف غيـر مقنعة لكنني أنـا سجينهـا .. حتى وان كنت قد كفرت بهـا .

« أما قلت تحبنـي ؟. نعم .. السـت تريدنـي ؟ نعـم اذن مـا الذى يفرق بيننا . لم تريد الاقتران بأخرى ؟ لا تقل لى كنت مرغما .. ألك .. وليس لك ارادة ؟ اذن ما الامر ؟ » .

حقا ما الامر .. عذراء تدخل بيتـي تجلس ببساطة فوق سريرى . تدخـن سجارة بلا مبالاة . تستمع الى اسطوانة أقبلها . تقبلنى بتـردد لكن بـرغبة ظاهـرة . تتكلم عن الجنس .. الحب . الحرية .. أحاول ان اضاجعها تتمنـع تعتذر . حياء ربما عن خبث ودهاء .. وتعانقنى . ببراءة تعانقنـــي . ثم ذات ليلة تنسى . تنسى ان تقول لا . تضاجعنـي على شرط ان تبقـى عذراء . ثم ماذا تريد ؟ حتما تريد ان توقعني فى الفخ . تقيدنى . الزواج .. الاطفـال . قيود .. لست أدرى أى نوع من الحب تريده .. ربما الحب العذرى .؟ تعيدنى الى العصر الجاهلى .. معتوهة حالمة لكنها لن توقعنى ..

وقعت فى الفخ مرة كانت غلطـة . دخلت حلبـة العبث ورائحة المغامرة تزكـم أنفى . تجذبنى عنوة اليها . كنـت أريـد القنص لا غيـر . لكـن فى جو العبث يصبح عادة الصائد فريسة . والمغامرة فخا يصطاد الاثنين معـا ، الصائد والفريسة . وقعت فى الشبكـة . بقيت اتخبط اياما . استعدت قواى اكتسى جناحاى قوة . مزقت خيوط الشبكـة . وحلقت ثانيـة . ابنتى !! لا يعنينى أمرها الزمن معها . لا مـن يستطيع قص جناحى ومنعـى من التحليق ثم . آه .. أخرى . كنت الحمار الذى القى فوق ظهره بحمل يجهـل مأتاه ، انما الخوف من الفضيحة . يا لـه من كيس من القذارة وضعه الاذكياء فـوق كاهلى ليتخلصوا من العبء الثقيل . طفلة أخرى تطرق عنوة أبواب الدنى .. ما أكثر البنات وما أقل جدواهن ! قيود ، مجرد قيود .. انهن لا يصلحـن إلا لـ ... وبعد ؟ لكـن هذه المرة لن أقع أأنا أبلـه حتى إقع ؟ أخيرا استفقـت يـا فـرحة أمـك بـك .! أمـك ميتـة .. أحسن ما فعلت ان ماتت .. وشر ما فعلت اذ تركتك بعدها . فاسق آخر فى حظيرة الفاسقين .. يا ابن الفاجـرة استفقت أمام البراءة والطهر والنقـاء ــ واغمضت عينيك أمام العهر والخداع الغش هذا ما خلقت اليه .. لن تستطيب العيش الا مخدوعا .. مهلا .. الزمن بيننـا ربمـا استطعـت التخـلى عـن بـراءتى وسـذاجتى فى يـوم مـا .. وعندها سأعـرف كيف أغرس فى رأسـك المنهـوب العقل عشرات القرون

أجذبك منها .. عشرات القرون ، ذهبية . ام فضية تريدها لك الاختيار . صبرا ... لان الشرف فى بلدى أصبح خطيئة . لان الفضيلة غدت موضة بالية تتبع تقاليد عتيقة وانا كى اعيش لا بد ان اتبع خطى الزانين ، أقدم جسمى هبة للعابثين .. ولا أكون فاضلة .. ولا نقية .. لمن ؟ ولماذا ؟ لا من يعترف بنقائى فى عصر التناقض .. ولا من يحبذ وفائى فى عهد التغيير والتجديد .. انجلت امامى عدة حقائق غريبة .. غريبة ..

النجاح تحت أقدام المومسات .. الدنيا تسيرها نزوات المومسات . المال .. الثروة .. المناصب . القصور ، تحت اقدام البغايا . ما ثمن عذراء فاضلة .. لا شيء .. فلس مثقوب يدوسه الانذال بنعالهم .. المشاعر الحياء . الوفاء . الاباء . احترق الكل فى مبخرة الدنس . صبرا يا ابن الفاجرة . صبرا !! .

أهى حقا عذراء ؟ لم أعد أعرف .. أريدها ولكن .. كم من سرير جلست عليه قبل أن يحط بها الركب على سريرى ؟ كم من سيجارة أشعلت بلا مبالاة وهى تعانقه كما عانقتنى يوما بحياء لكن برغبة مفضوحة .. ان كنت سأتقيد لن يكون ذلك الا غدرا .. أو بمن لا أعرف .. ربما كانت هى الاخرى شبه عذراء .. جلست ذات يوم على فراش ما مع شخص مجهول تقبل شفاهه على أصداء موسيقى حالمة ثم تعود تنتظر فى البيت . تنتظر ان يتقدم جبان مخدوع ليقرن مصيره بمصيرها . يتقدم رغما عنه وبدل ان يقول لا .. يقول نعم .. وبدل نعم يقول لا . لانه لم يدرك بعد متى يقول نعم ومتى يمكن أن يقول : لا !

« عذراء لا تعرفها يا حثالة أمة ضاقت ذرعا بحقارة المخدوعين . العلم .. الطب الحديث . وتعود الثيب بكرا .. والزانية عفيفة تختال أمام أعين المغفلين يتوج رأسها تاج الطهر والشرف ، بينما الدعارة يستعر لهيبها فى أحشائها يسرى فى شرايينها .. ألا يعرف ذلك ، ذاك المنسلخ عن نفسه .. تباله . ولهم .. وقبائل الجاهلية التى جاءوا منها .. بدائيون مغفلون . مغفلون .. » .

– ماذا يفعل الواقعيون فى فوضى الزمن .. يتشاجرون . يتقاتلون . ام يقبعون فى ركن منزو يفكرون فى مستقبل الوجود الذى ماتت اشراقته فى أفق العبث الداكن ..؟

ـ قلت لك ان الكأس الاخيرة كـان وقعها شديدا عليك . أنتم أنـاس لا تعرفون أنفسكم . واذا عرفتم أنفسكم حاولتم أن لا تعرفـوا ما تريـدون .. واذا وصلتم الى ما تريدون صدفة .. عدتم القهقرى تبحثـون عما لا تعرفون وما تجهلون .. يا لكم من شعب مفكك الافكـار .. ممزق الحيـاة .. لكن قل لى .. ما هى نظرتك الى الحيـاة أولا .. سـوداء ؟ حمـراء ؟ أم بيـن بيـن ؟ بماذا تؤمن ؟ اى مبدا تتبع . هل تصلى ؟ اتقـرأ شعـرا ؟ اتتقمص الاحداث أم تترك الاحداث تتقمصك وتطبع شخصيتك ؟ أأنت اشتراكى أم رأسمالى ؟ أم مجرد رجعى .. انهزامى ؟

ـ ما هذا ؟ أخطبة الجمعة هذه ، أم هو درس فى التاريخ ، أم الفلسفـة ؟ ياه .. من انا ؟ آخـر مرة رأيتها قالت انى سافل فى طريقى الى السير فـى قطيع المغفلين ، كادت تبصق على وجهى وهى تتفوه بكلمة أخرى لم أفهمها جيدا .. كبرياء !! ضحكت إذ لم أع معناها . مـا معنـى كبريـاء عندكـم .. أم هى كلمة اخترعتها تلك المشاكسة العنيدة ؟ ..

« الكبريـاء سيـدى .. الا تعـرف معنى الكبريـاء ؟ شىء مخجل . قاتل . ومضحك .. كيف اتحدث مع انسان لم يفهم بعد معنى الكبرياء .. يـا لتعس رجولتك .. أهذا سر مرحك الدائم ولا مبالاتك ؟..

انما انا فلى جبال وجبـال من الكبريـاء . جبال تهدمنى ترفسنى تحـت الانقاض تجبرنى على الهـروب . الهـروب منك .. ومن دهر قذر استقرت معالمه فى ظلمات عينيك .. ظلام .. ظلام .. اذهب الى قبـر امك اسألها عن معنى الكبرياء عساها تخبرك .. أم هى ربما تجهل معناه مثلـك .. ويـلاه .. ويـــلاه . »

ـ هذه كلمة يا صديقى يستحسن أن لا تفهم معناها ما دمت لا اشتراكيا . ولا رأسماليا . ولا دمقراطيا ـ بل مجرد عابث فوهوى فى سبيلـه ان يصبح مغفلا .. هذه كلمـة تجدها فى قاموس الحياة الذى لم تقرأه بعد .. ما عليـك انظر تحت قدميك ستسقط فوق كومـة القمامة وتقتل بحماقتك البراغيـث المسالمة . دعها تنام مطمئنة . أم أن لا من يستطيع أن يعيش هادىء البال مطمئنا عندكم ولا حتى البراغيث فوق اكداس القمامة ..؟!!

الليل يفنى ويعقبه النهار . تنتحر الانجم لتبزغ الشمس . تموت سنابل الخير تحت مناجل الشر ، او العكس بالعكس . ربما مات المخدوعون وجاء المبصرون . ربما أتوا يوما صدفـة ...

الزنزانة المظلمة .. واللمبة المتحطمة .. وصوت السجانة الجاف : اذهبي لا مكان لك هنا . لا مكان في أي مكان !!!

الشوارع مكتضة . والظلام شديد رغم النهار الثائر . يركضون الى الأين ؟ للالتحاق بجنازة البراغيث ؟ البراغيث القتيلة .

قال أحدهم ادمقراطية هذه ؟ جعلوني أوافق على الكل غصبا عني . ما هذا ؟ أجابت شوارب آخر : رجعية والله أفكارنا ومتصلبة .. لا بل افكارهم دكتاتورية مغلفة بورق شفاف ، زور خداع ، عرفت اللغز ..

تمايلت نصف بكر متعثرة في فستانها الملون الطويل وهي تسوى بحركات مدروسة الخمار الابيض الذي يكفن رأسها .

« الم يدركوا بعد انها انتهازية . وفوضى اخلاقية . غوغاء مشؤومة غوغاء انا الوحيدة التي وجدت ما ابحث وسط الزحام وجدت ضالتي خلف الخمار والفستان الطويل . الطويل . قيل قبلا : الزى لا يصنع الراهب .. بلى .. لكن الزى يصنع الفخ .. كما ان المادة تضمن البقاء . والمكر يضمن الحياة التدين . العقيدة .. تحت خبائهما أخفى تطلعات شتى . ونوايا خبيثة ومريبة لكن لا بد منها لدخول ادغال الوجود . التدليس في كل شيء . في الايمان الاخلاق .. القيم . كل قابل الى التدليس في عصور المحنة والانحطاط . مزايا أصفع بها الجميع . اتحداهم بالطلاء الخارجي – انما الاعماق .. آه الاعماق لا تجذب سوى المجانين . المهم الطلاء الخارجي . وقد بدأ يجذب عشرات البله ما حيلتي والتزوير أمسى هواية . لعبة كالبريدج . والبكارا وهوايات أخرى يشاع أنها تجلب الخراب لكنها مسلية ..

ـ الايمان هو سر ازدهار الشعوب ووحدتها .. مع الصدق ونقاء السريرة .. المجتمع الذى يعرف كيف يتجاوز المنكر . مجتمع يكون قد ...

الموعظة .. الثرثرة .. والايمان المتأرجح فوق خيوط عنكبوت ميت . ذاك ما بقى لنا . سم بطىء يقودنا نحو النهاية رويدا . رويدا . الحرب خدعة أو لا تكون .. والحياة خدعة او لا تكون . اسالوا الخمار الابيض ، والفستان الطويل الطويل ..

وكانت زوابع تتجمع فى نفسها حانقة تحثها . ويحها من تلك الزوابع التى دمرتها مع رعب الكوابيس . رعب كافر . يتضخم . يتضخم . يغض جسد الزمن . ينتفخ . ينفجر أخيرا بسائل اسود اسمه : الياس .. الياس والجحود البشرى .. باقية لماذا ؟ ولمن ؟ لمن ساهيىء مراكبى والبحر قد جفت مياهه ؟ لمن أحيا والحياة اسلمت الروح مذ عرفت أن الدهر لا يسجد الا للعابثين ؟.

لمن اغنى وقد تحطم عودى وخنقت عواصف الاحداث صوتى الجريح ؟ لمن انا باقية وغدى قد طعن . امتصت منه الدماء لتقدم خمرا فى كؤوس الغادرين .. وأحلامى قد احترقت وذر رمادها فى الشوارع حيث تدوسها أقدام الظالمين . والمغفلين . واحقر . أحقر المخدوعين ؟ لمن ؟ ولماذا ؟ لماذا ؟ .

لكنها ستصل . الى ذلك التافه الذى يجهل معنى الكبرياء . الى الذى أراد لها ان تكون مومسا وكانت .. لليلتين .. ثم تركها . ونسى ان يدفع الثمن يا لها من بغى فاضلة بلا ثمن . بلا كرامة . بلا قيم ..

ـ سيجارة ؟ قهوة ؟

ـ ماذا !! قهوة !! القهوة للمتخلفين .. المتمدنون يشربون الويسكى ألست رجلا متطورا كما قلت مرة .. لا تؤمن بشىء لا بالحب ولا بالشعور ولا نحب القيود .. أنا لا أنسى ، حتى تناقضاتك لم أنسها .. لكن هذه المرة كدت انسى . مع كأس الويسكى ـ احضر مائة دينار ولا تنظر الى هكذا كجرذ مذعور ..

مائة دينار فقط هذا مع التخفيض مراعاة لمشاعرى الخجولة نحوك . أقصد مشاعرى القديمة نحوك .

ـ مائة دينار !! لماذا ؟ لكن لا باس . سأعطيهـا لك الآن . يسعدنـي أن أقدم لك هدية . اجلسى كم اشتقت اليك ...

ـ انها ليست هدية بل هـي ثمن الليلتين اللتين قضيتهما معك. الا تذكر. اتريدنى أن أكون مومسا بلا ثمن ؟ هات واسرع .. واكرر لا تنظر الى هكذا كجرذ يتيم مذعور .. أنت تقرفنـي وتجعلنى أحتقرك اكثر .. واشفق عليـك فى نفس الوقت .

يا للاوراق البديعة كم هى دافئة الملمس .. تعال . سنتسلى بحرقها . ما أجملها وهي تحترق . ما لوجهك شحـب ؟ أآسف انـت لحرق مائة دينـار ؟ عجبا !! لقد احترقت كرامتى انوثتى احترق كبريائى ذات ليلة وكنت مزهوا فرحا .. احترقت أنا بدون مقابل بـل مقابل الهجـر .. والصفع .. ثـم الآن تؤسفك مائة دينار .. كان يجب ان تحترق معهـا ولكن ـ لا تتكلم . اسكـت أنت لا تفهم لا فى السياسـة .. ولا فى الحب ولا فـى الاقتصاد الدولـى .. اسكت . سافلا كنت، وقذرا اعرفك ، فلا تكن كاذبا .. او .. الوسكى مغشوش من اين اشتريته ؟ كل مـا عندك مغشـوش حتـى الوسكى يـا للتعاسـة .! سأذهب الآن .. لا يهـم .. لا بد ان التحق بجنـازة البراغيث . لا بـد ان أسير خلفها وانا التى قتلتها. لا تتعجب انه عصر المعجزات والمتناقضـات القاتل يسير دوما خلف المقتول .. يشيع جنازته ويذرف الدمع .. هكذا .. تقاليد .. مراسيم لا بد من القيام بها .. هذا رأى الجميع ..

كان الاجدر ان اقتلك انت .. انمـا لا .. أتركـك للخبيثات يتلهين بـك . يخدعنـك وللزناة ليلقلوا فوق كاهلك بكيس قاذوراتهم . وهبتك لهـــم .

اتضح أن البراغيث بريئة . ومظلومة أيضا . هل تعـرف مـن الظالم ؟ لا تدرى كذلك !! عم الغباء العقول .. أمور كثيرة .. كثيرة تقع كل يوم .. كل ساعة فى هذا البلد ولا مـن يدرى شيئا اتاكل ما أعرفه ، ان الفناء هو دومـا نهاية الابريـــاء .

هذا ما استطعت أن أعرفه . حقيقة مريـرة . غاشمـة .. لكن الفناء دومـا نهاية الابريـــاء ..

حياة بن الشيخ

قصائد متوحشة ..

شعر : كمال قلاوين

– 2 – (*)

– 5 –

اني مسكون بالأحزان

لا شَيءَ على جَسَدي حتّى الانْ ،
لا شَيءَ سِوى زَفَرَاتِ الأزْمَانْ ،
لا شَيءَ سِوى أنّي مَسْكُونٌ بِصَهِيلِ الأحْزَانْ ،
إنّي مَسْكونٌ بالرّعْبِ الليليِّ ،
وبالخَوفِ الوَسْنَانْ
مَسْكونٌ بالكُرْهِ المَمْنُوعْ
مَسْكونٌ بالحُبِّ المَمْنُوعْ !
زَمَني يَطْرُدُني مِنْ زَمَني ،
وَطَني يَرْفُضُني مِنْ وَطَني ،
قَيْدي يَنْفُرُ مِنّي ...
لكنّي أبْقَى مَشْدُودًا رَغْمَ الكُرْهِ ... إلى رَسَني ..
يَنْتَشِرُ الشّوْكُ الانَ على جَسَدي ،
كالصّدإِ المُتَرَاكِمِ يَجْثُمُ فوقَ عِظامي
يَنْقَضُّ على رُوحي ... وَعلى بَدَني
وَيُسَمّرُني في وَتَدي ،

(*) تابع لما نشر فى « الفكر » : ع ١ ، س 27 ، اكتوبر 1981 .

هلتي لُهثاتُ الأشياءِ الجدباءْ
تعبُرُ ذاكرتي ،
سُرهِقُ قافيتي ،
وأنا وحدي المحمولُ على زندِ التيّارْ ،
يلهو بي الإعصارْ ..
وأنا وحدي أتقصّدُ عرقاً ...
أتنزّى ألماً
أتسربلُ بالرعبِ الهمجيِّ الموسومِ بشتّى الأخطارْ ،
أقطعُ تذكرةً للسفرِ المجهولْ
كي أغدو خبزاً يومياً يطلعُ من أرضِ الفقراءْ ،،
يتينّعُ في وطنِ الفقراءْ ،
يُطعِمُ كلَّ البؤساءْ !

* * *

— 6 —

زمن الكساد

زمني كسادْ ... زمني فسادْ !
العقمُ زادْ
والموتُ زادْ
الليلُ كلكلَ والعبادْ
والطيرُ أعلنتِ الحدادْ ،
والكلُّ في سوقِ المزادْ
الكلُّ في سوقِ المزادْ !
هذي الأماني والرؤى
نامتْ على شوكِ القتادْ !

هَذِي المَدَائِنُ حُطِمَتْ ،
لا خَيْلَ تَجْرِي ،
لاعَتَادْ ،
الأفقُ أجْدَبُ ،
وَالمَدَى
وَالبُومُ عَشْعَشَ في البِلادْ ،
وَاللّيْلُ في أحْيَائِنَا ،
رُعْبٌ تَسَرْبَلَ بِالسّوَادْ ،
وَالخَوْفُ كابُوس الوَرَى
يَجْثُو عَلى جُثَثِ العِبَادْ
لا شَيْءَ في عُمْقِ المَجَامِرِ يَسْتَوِي
غَيْرُ الرَّمَادْ ،
في وحْدَتِي ، وَالرُعْبُ صِنْوٌ للفَجِيعَةِ وَالكَسَادْ ،
جَفْنِي يُعَانِقُهُ الرّدَى
وَالليْلُ أقْتَمُ وَالسَّوَادْ !
دَرْبِي تَشَعّبَ وَالرّؤَى عَمِيتْ بِدَرْبِي ... وَالوِهَادْ !
عُمْرِي تَلاحَمَ وَالشّقَا
قَلْبِي تَقَاسَمَهُ السّهَادْ !
إنّي مَجَانِي الحُزْنِ حَانَ قِطافُهَا
الحُزْنُ أيْنَعَ في المَحَاجِرِ وَالفُؤَادْ !
وَالرّأس قَدْ شَابَتْ جَدَائِلُ شَعْرِهِ
صَرَعَ الدقَائِقَ في مُقَارَعَةِ الجَمَادْ ! ...

* * *

كمال قداوين

مطالعات

"تونس الخضراء" للأستاذ ناجي الجواد

بقلم: محمد المرزوقي

غالبا ما يقع الرحالون في اخطاء عندما يكتبون ملاحظاتهم عن رحلة من رحلاتهم ، وغالبا ما يكون السبب في اخطائهم يكمن في كتابتهم عن أشياء غريبة عنهم ولم يبحثوا أهل مكة عن أسرار شعابها ، ويكون لسرعة مرورهم بالامكنة دور هام في حصول تلك الاخطاء .

انا مغرم بمطالعة كتب الرحلات وتتبع ملاحظات الرحالين عن البلدان التي يزورونها ، فلا غرابة اذن ان يتملكني السرور حين حصل في يدي كتاب (تونس الخضراء) للاستاذ الرحالة ناجي جواد ، أحد كبار الكتاب بالشقيقة العراق ، مهدى الى من قبله بتاريخ 9 / 6 / 1977 جزاه الله أحسن الجزاء ، والكتاب من سلسلة كتب رحلات الاستاذ التي تحمل عنوانا عاما : رحلتي الى افريقيا العربية ، ويقع في 88 صفحة من القطع الكبير ، محلى ببعض الصور . طالعت الكتاب بنهم وشوق واعجبت بما فيه من طلاوة الاساوب وحلاوة النكتة وطرافة الالتفاتات ، الا انني لاحظت فيه بعض الاخطاء لم ار بدا من التنبيه اليها حتى يعرف قراء الكتاب الصواب فيها .

كان حلول المؤلف بتونس في مارس 1971 وحضر حفلة التكريم التي أقامتها لي دار الثقافة ابن رشيق ، وتشرفت بمعرفته في تلك الحفلة التي كتب عنها في كتابه كلمات طيبة اكرمني فيها بلطفه وتقديره جزاه الله احسن الجزاء .

اما الاخطاء الواردة فى الكتاب فساقتصر على تصويب بعضها دون الالتفات الى الهنات الصغيرة التى لا تلفت النظر ، والتى لا بد من وجودها مهما حاول الكاتب تفاديها ، وسأثبتها مرتبة حسب الصفحات أولا بأول :

ـ فى ص 23 صورة لقسم من نهج جامع الزيتونة كتب تحتها : نهج الزيتونة ، والصواب : نهج جامع الزيتونة .

ـ وفى ص 26 تحدث المؤلف عن تجار اسواق المدينة ، واصفا اغراءهم للسياح بشراء سلعهم ، فقال : « وآخر يجرك الى البسط القصيرة من الوبر النقي ، وتعرف هنا (بالكليم والمرقوم من صنع القيروان أيضا) .

والمعروف ان الكليم والمرقوم يصنعان من الصوف فحسب ، ولا يدخل فى صناعتها الوبر الذى يدخل فى صناعة (الوزرة) و (البرنوس) غير الابيض أحيانا مخلوطا بالصوف كما ان صناعة الكليم والمرقوم لا تنسب للقيروان ، ولو ان صناعتها موجودة فيها خاصة فى (حاجب العيون) وانما اشتهرت بصناعتهما (ڤفصة) و (المطوية) و (وذرف) بولاية ڤابس .

ـ وفى ص 27 ذكر المؤلف ان احد الباعة السوق عرض عليه رؤية سلعته بلغة فرنسية فقال له المؤلف : « أنا عربى من بغداد ، فقال التاجر التونسى : آه... بغداد عاصمة الشام » وعزا المؤلف هذا الجهل بمواقع البلدان العربية الى الاستعمار الاجنبى الذى فرض علينا الانعزال ووضع العقبات لعرقلة التزاور والرحلات .

وليس فى هذا غرابة فقد مر عهد على العرب جعل حتى المثقف منهم يجهل أحيانا موقع بلد من بلدان موطنه الذى ولد فيه ، فقد حضرت مرة مجلسا من مجالس الاصدقاء بالقاهرة ووقع حديث عن بلدة تقع بين القاهرة والاسكندرية حسبما قيل لى ، فتساءل احدهم عن موقعها ؟ فأجابه صحافى ناشىء : بانها تقع فى الصعيد !

ويذكرنى هذا بكاتب شرقى كتب مرة عن القيروان فزعم ان عقبة بن نافع أسسها سنة 50 هـ. على شاطىء المحيط قرب مدينة فاس !! ، وعلق محققو الذخيرة لابن بسام على كلمة (روطة) فى بيت ابن شرف (يا بئر روطة والشوارع حولها الخ) ، بقولهم : لعلها قرية قرب القيروان ، وبئر روطة أو بروطة كما ينطقها العامة هى بئر معروفة داخل مدينة القيروان .

وفى ص 28 قال المؤلف : « اليوم كان الناس يطوفون بمزاد (للجبب) و (الجادورة) » والجبب معروفة جمع (جبة) اما الجادورة فلا أعرفها ، واظن

انه لا وجود لهذاالاسم بين انواع اللباس اللهم الا اذا سمع المؤلف كلمة (القندورة) أو (القدوارة) من احد البدو الزائرين للسوق فحسبها (الجادورة) والمعروف ان (القندورة) هى (الجبة) اما (الجادورة) فتطلق على الفرس الصغيرة أو المرأة الغبية .

وفى ص 39 تعليق بالهامش يشرح فيه المؤلف كلمة (الزكرة) فقال : « الزكرة عبارة عن جلد حمل صغير (جراب) ينفخ فيه حتى اذا امتلأ ساعد العازف عندما ينقطع عن النفخ ، ضغط على الجراب فيستمر بالعزف لخروج الهواء المضغوط الخ ... »

وهذا وصف (للمزود) لا للزكرة ويظهر ان المؤلف نقل هذا عن أحد الجاهلين بالموسيقى وآلاتها فى تونس ، فالزكرة فى تونس هى المعروفة بـ (الزرنة) عند بعضهم و (الغيظة) عند آخرين وهى من الآلات الزامرة التى لا صلة لها بالجلد ولا يدخل شيء منه فى تركيبها .

وفى ص 44 تعليق بالهامش جاء فيه : « اذ ان ولى العهد الامير الشاذلى باى الحسينى ما زال حيا فى تونس الخ » والشاذلى باى ابن الامين باى آخر البايات لم يكن فى يوم من الايام ولى عهد ، وآخر ولى عهد هو حسين باى ابن الناصر باى .

وفى ص 45 تعليق بالهامش تحدث فيه عن أبى القاسم الشابى فقال : « نقل جثمانه الى مدينة توزر حيث دفن فى مقبرة اسلافه » .

والصواب : انه لم يدفن فى مقبرة اسلافه ، وانما دفن فى ضريح مستقل معروف بين توزر وبلدة (الشابية) .

وفى ص 46 قال المؤلف : « ثم مررنا بالجامعة التونسية التى كان الفضل الاول فى تأسيسها لابن خلدون » .

فمن أين أخذ المؤلف هذا ؟ ان ابن خلدون من طلبة الجامعة الزيتونية القديمة والمعروف انه خرج من تونس شابا والجامعة التونسية التى يتحدث عنها المؤلف انما تكونت فى عهد الاستقلال ولم يكن موجودا قبل الاستقلال الا بعض الدروس العليا تابعة فى برامجها وامتحاناتها للجامعات الفرنسية .

وفى نفس الصفحة يتابع المؤلف حديثه فيقول : « وبعدها (أى بعد الجامعة التونسية) واجهنا (جامع الحفصى) الملى الذى يقع فى منتصف تونس بجوار

الاسواق الشعبية والحارات القديمة الضيقة وقد شيده الامير (المستنصر بالله الحفصي) وافتتحه بنفسه متبركا بالاذان للصلاة » .

والصواب : ان الجامع الحفصي يقع خارج سور تونس القديم لا في وسطها ، والذى أسسه هو الامير أبو زكرياء يحيى الحفصي ، والد المستنصر ، وقد فتحه واذن فيه بنفسه في غرة رمضان 630 هـ ــ 1233 م اما المستنصر فلم يتول الملك الا بعد هذا التاريخ بسبعة عشر عاما اثر وفاة والده أى في سنة 647 هـ ــ 1249 م .

وفي ص 68 تعليق بالهامش قال فيه المؤلف : « صالح المهدى عازف العود الشهير » .

والمعروف أن صالح المهدى يعزف على الآلات الا ان شهرته واختصاصه يتمثلان في (الناي) .

وفي ص 69 تحدث المؤلف عن الحفلة التي أقيمت بدار الثقافة ابن رشيق بمناسبة تكريم (محمد المرزوقي) وحضور المطربة علية للغناء في الحفلة فقال : « استجابت (أى علية) لطلبات المستمعين فغنت أغنية شعبية الشعر الشعبي التونسي للشاعر المحتفى به ــ المرزوقي (لاموني اللي غاروا مني) » .

والمعروف ان هذه الاغنية (لاموني اللي غاروا مني) هي من تأليف المرحوم البشير فهمي وتلحين الفنان الهادي الجويني ، ولكن الاغنية التي غنتها علية من تأليف المرزوقي هي (غزالي نفر بعد الغضب ما ولى) ، وربما جاء خطأ المؤلف من كونه سمع في الحفلة الاغنية الاولى أيضا .

وفي ص 79 قال متحدثا عن الشابي : «طلعنا في الاربعينات ديوانه بلهفة» .

ربما كان المؤلف يقصد النماذج التي صدرت في كتاب الاديب أبي القاسم كرو عن الشابي اما ديوان الشابي (أغاني الحياة) فلم ينشر الا سنة 1955 .

هذه بعض الملاحظات الخاطفة عن كتاب (تونس الخضراء) للكاتب العراقي « ناجي جواد » كتبتها اثر مطالعتي الاولى للكتاب ولست ادرى هل يقدر لى ان ارجع اليه مرة ثانية ففي أدب الرحلات من المتعة واللذة ما لا يخفى على مدمني مطالعة الكتب أمثالي .

محمد المرزوقي

أصداء الفكر

● الفتح الحضارى أو حول الأصالة والمعاصرة :

تحت هذا العنوان نشرت جريدة « العمل » فى العدد 30 من ملحقها الثقافى الاسبوعى بقلم الاستاذ **محمد مزالى** مدير مجلة « الفكر » والوزير الاول ما يلى :

الادب التونسى (*) هو فى الواقع أدباء تونسيون. فليس هناك اتجاه واحد طاغ يمكن ان يعبر تعبيرا أمينا عن الادب أو عن موقف الادباء فلكل أديب ولكل مفكر اتجاه وهموم وتكوين شخصى لان أكثر الادباء فى اعتقادى الشخصى متمسكون بالاصالة فى معناها الحى التمسك بالمقومات الاساسية فى الكيان القومى بمفهومه الضيق أى تونسى وبالمعنى الرحب أى الوطن العربى .

وهى أيضا ترمز الى الوفاء لسلم القيم الذى منه وعنه ظهر وطننا العربى الاسلامى يعنى ليس تقييد الماضى بالحاضر .

والتمسك بالقيم العليا فى أن نقف الموقف اللازم من عصرنا ومن هموم عصرنا بصفة عامة فى كل المواطن الحية ومن مقتضيات الاصالة وجوب التمسك بالعلم .

إذ أن أسلافنا فى العهود القديمة وخاصة العصر الأموى والعصر العباسى الاول أقبلوا إقبالا منقطع النظير على العلم وترجموا كل شىء عن اليونان والهند والفرس ثم هضموا هذا التراث وزادوا عليه فابتكروا وأصبحوا خلاقين ونحن اليوم اذا اردنا أن نكون بحق أصيلين وجب علينا أن نكون متمسكين

(*) مساهمة الاستاذ محمد مزالى سنة 1978 فى البرنامج التلفزى السعودى (الكلمة تدق ساعة) حول الاصالة والمعاصرة .

بالعلم وأن نذهب كل مذهب فى الحضارة الانسانية المعاصرة وهذا لا يعنى أن نقلد الغير لأن للغير هموما كثيرة مغايرة لما نواجهه .

الحيــرة الـوجــودية

والتمسك بالعلم وحده لا يكفى فالعلـم ليس إلا أداة ووسيلـة ومعطيـات موضوعية يجب أن نضعها من خلال زاوية نظر شـاملة للحيـاة وهنـاك أدباء كثيرون فى الغرب فى أوربا أو فى الولايات المتحدة أخذوا الآن يدركون أكثر من ذى قبل أن الرفاهية المادية وإن كانت ضرورة فهى غير كافية وأن العلـم ضرورى لكنه غير كاف وأن الانسان من دون تلك الاماضة الربانية ومن دون ذلك الشعور بالقداسة ومن دون تصور للكون فى حـاضره ومستقبلـه ومن جواب شاف عن مـآل الانسان فانه رغم رفاهيتـه المـادية ووسـائله التقنية والتكنلوجية يعيش وهو يتجرع حيرة ماورائية ميتافيزيقية وجودية كبيرة .

التــوق إلـى المطـلـق

فالانسان ليس فقط جسما يعيش وليس هو بكائن اجتماعى يعيش وإنمـا هو روح وتوق الى المطلق وعلو الى السماء بحيث الاصالة هى تمسك بالقيـم واستيحاء من الماضى من أجل القدرة على صقل الحاضر وتهيئة المستقبل وهى كذلك نظرة تكاملية للانسان سواء كان فردا أو مجتمعا أى كيانـا فرديـا أو كيانا اجتماعيا حتى نحقق التوازن بين الروح وبين المادة لان تغلب ناحية على أخرى فيه هضم الانسـان وشقـاؤه ونحـن لا يمكـن ان نعيش فى عصرنـا الحالى كما كان يعيش اجدادنا منذ قرن أو قرنين أو عشرة قرون ، ولا يمكن أن يرجع الماضى فالماضى ولى وانقضى وإنما نكون أوفياء لماضينا المجيـد اذا استطعنا أن نسيطر على الحاضر وأن نؤثر عليه ، وأجدادنـا أيـام صـولتهم وسؤددهم عندما دخلوا الدنيا كانوا خلاقين وكانوا فاتحين بكل معانى الفتح لا فقط الفتح العسكرى بل كانوا فاتحيـن الفتـح الحضـارى فى الادب ، فى الفلـك ، فى الرياضيـات ، فى الكيميـاء ، فى الفيزيـاء ، فى الطـب ، فى الاقتصـاد ، فى الفـلاحة ، وفى جميع الميادين ، بحيث نحن نتجاوز التناقض بين الاصالة والمعاصرة لان الاصالة فى اعتقادى ليست تقليد الماضى أو حنينا صبيانيا اليه وإنما الاصالة هى حركية وعزيمة على التأثير فى الواقع لان رجل الحضارة هو فاعل لا مفعول به .

● الحـــديـقـــة :

يـا عـاشق الفـن والحقيقـه ..

لـك قلبـي فتحتـه قبـل أبـواب الحـديقه ..

هكذا فتح الشاعر الصديق مصطفى عـزوز قلبه للطفولة وأخرج لهـم من شعره قصائد ـ محفوظات ـ أناشيد ، ضمن كتاب لطيف ظريف مزين غلافه بكيفية تنشرح لها النفس ويسبـح منهـا الخيـال بين الالـوان والعصـافير والازهـار .

فلنقرأ مع الطفولة هذه الأبيات :

لما ربيـع الخير هـل هـلاله وولد الهدى بدرا يشـع جمالـه

ما كان يوجد فى الزمان مثاله صلى عليـه اللـه جـل جلالـه

هذا بعض ما جـاء فى كتـاب : « الحـديقـة » الذى أصدرته للاطفـال دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ـ تونس .

نشكر الصديق الشاعر مصطفى عزوز على النسخة التى وصلتنا من كتابه الجديد . ونرجو له التوفيق فى ميدان « أدب الطفولة » .

● **المملكة تساهم بمليون ريال فى ترميم جامع عقبة فى تونس :**

نشرت جريدة « الرياض » فى عددها الصادر فى 1981/16/13 ما يلى :

سلم الشيخ عبد الرحمن العمران سفير المملكة ، فى حفل أقيـم بـوزارة الشؤون الثقافية وزير الثقافة التونسى شيكا بمبلغ مليـون ريـال سعودى مساهمة من المملكة فى ترميم جامع عقبة بن نافع بالقيروان .

وقدم السفير فى نفس المناسبة لوحة للفنان السعودى فهد الربيق تمثـل الـدرعية .

واللوحة هدية من قبل الرئاسة العامة لرعاية الشبـاب بالمملكـة الى ادارة الثقافـة التونسيـة .

وانتظم ظهر أول أمس في مقر سفارة المملكة بتونس حفل تولى اثناءه السفير تقديم شيكين الاول بمبلغ 20 ألف دينار تونسى (حـوالى 40 ألـف دولار) لفائدة مشروع بناء مسجد سيدى عاشور بنابل والثانى بمبلغ 25 ألف دينار مساهمة فى دعم نشاط الندوة العالمية حول موارد الطاقة الجديدة والمتجددة .

والجدير بالذكر ان السفير كان قدم منذ اسبوعين تقريبا مساعدة مماثلة للاتحاد القومي التونسي للمكفوفين واسندت للسفير بتلك المناسبة عضوية الهيئة الشرفية للاتحاد التى ترأسها حرم الرئيس بوقيبة .

● **الملحق الثقافى التونسى يزور جمعية الفنون فى جدة :**

نشرت مجلة « اقرأ » السعودية فى عددها الصادر يوم 1981/6/11 هذا الخبر :

قام الاستاذ محمد الكواش الملحق الثقافى بسفارة الجمهورية التونسية بزيارة ثقافية وفنية لمركز النشاطات التابع للجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون بجدة وذلك فى مساء السبت 1401/8/4 هـ. حيث أطلع على سير اللجان داخل المركز .. وقد كان فى استقباله لدى وصوله سعادة الاستاذ محمد الشدى رئيس مجلس ادارة الجمعية ، والاستاذ عبد الله الجار الله عضو مجلس ادارة الجمعية ، والدكتور عبد الحليم رضوى مدير فرع جدة ، والاستاذ فيصل الملصى نائب المدير ، ورؤساء اللجان ، وقد أعرب الكواش عن سروره البالغ لما لمسه من تقدم فى المجالين الثقافى والفنى بالمملكة .

هذا وقد تم فى الاجتماع بحث امكانية التعاون مع الجمعية فى المجالين الثقافى والفنى .

● **مقالات نقدية فى الادب الكويتى الحديث :**

أصدرت أخيرا المؤسسة العربية للدراسات والنشر بالكويت كتابا للاستاذ الصديق : سعيد فرحات يحمل العنوان التالى : « **مقالات نقدية فى الادب الكويتى الحديث** » تناول فيه الكاتب بالنقد عدة كتب ودواوين ومجموعات شعرية صدرت فى الكويت خلال فترات معينة ومنها : « رحلة مع ديوان أجنحة العاصفة » للشاعر الكويتى : أحمد مشارى العدوانى ، ومنها : « الاوراق وحكايات من الوطن العربى » للاديب : عبد الله زكرياء الانصارى ، ومنها : « الشعر الحديث فى الكويت الى سنة 1950 » تأليف مشارى عبد الله السجارى .

شكرا جزيلا للصديق فرحات على النسخة التى وصلتنا هدية منه من هذا الكتاب الثمين الذى قام فيه بمسح نقدى لما ظهر من تآليف فى الكويت الشقيق . وإنا لنرجو له اطراد العطاء الفكرى النير اخصابا للمكتبة العربية وخدمة للثقافة المعاصرة .

● **تربية الانسان الجديد :**

أصدرت الدار العربية للكتاب فى جانفى 1981 كتابا قيما يضم 328 صفحة من القطع المتوسط يحمل العنوان التالى : « تربية الانسان الجديد » من تأليف : الدكتور محمد فاضل الجمالى الذى اهدانا مشكورا نسخة من كتابه هذا الذى يبحث فى شؤون التربية والفلسفة ويحتوى على 22 عنوانا منها نقرأ : « مهمة المربى ، تكوينه ، حاجته الى فلسفة تربوية » و « تطور الفكر التربوى عند اليونان » و « فلسفة التربية القرآنية » و « نشوء التربية الحديثة » . وغيرها من العناوين كثير — والى جانب هذه المواضيع نجد ترجمة شخصية للكاتب وعناوين مؤلفاته التى تربو على 16 كتابا .

● **تاريخ السنماء التونسية :**

هذا عنوان كتاب صدر باللغة الفرنسية عن الشركة التونسية للتوزيع من تأليف الاستاذ : عمر الخليفى . ويحتوى الكتاب على 240 صفحة من القطع المتوسط .

نشكر المؤلف على النسخة التى وصلتنا هدية منه .

● **أبو القاسم الشابى فى جريدة « الأهرام » :**

بقلم : هادية نصار وتحت عنوان : « **أبو القاسم الشابى الرومانسى .. الثائر !** » نشرت جريدة الأهرام فى عددها الصادر يوم 24 جوان 1981 مقالا جاء فيه خاصة ما يلى : « **هو شاعر مجيد وكاتب ثائر ، لا تتعدى معرفة القارى به إطلاعه على مختارات قليلة من شعره وترجمة قصيرة لحياته — وهو الشاعر العربى أبو القاسم الشابى — وحديثنا اليوم هو الحديث عن هذا الشاعر وعن منجزاته خلال رحلة حياته التى لم تتعد الثامنة والعشرين عاما !**

وهذا هو ما تدور حوله رسالة « الماجستير » التى تقدم بها « عبد الحفيظ حسن » تحت عنوان : « أبو القاسم الشابى الشاعر الرومانسى » الى كلية دار العلوم بالقاهرة وحصل عليها بتقدير امتياز ... » .

والملاحظ فى هذا المقال القصير هو اهمال نسبة « الشابى » الى تونس هذا أولا وثانيا هو أن اخواننا المصريين ما زالوا مصرين كما كانوا فى مجلة « أبلو » على أن الشابى صاحب حظ من الثقافة الاجنبية وانه متأثر بأدباء فرنسيين من خلال ما يطالعه باللغة الفرنسية بالخصوص ، وهذا مخالف للواقع

أملنا أن نطلع على « رسالة الماجستير لعبد الحفيظ حسن » منشورة في كتاب حتى يمكن لنا المقارنة بين ما جاء في هذا المقال وما في الرسالة من أحكام وآراء عن الشابي .

● **التقليد والتجديد في الشعر التونسي المعاصر :**

نشرت جريدة « الصباح » في عددها الصادر يوم 8 / 8 / 1981 بقلم الصديق : محمد بن رجب في ركن : « فكروفن » مقالا عن كتاب صدر في بولونيا بعنوان : « مظاهر التقليد والتجديد في الشعر التونسي » باللغة البولونية تأليف : الدكتورة كريستينا سارزينسكا بوسنسكا ، ويحتوي الكتاب على 355 صفحة من الحجم الكبير من بينها 15 صفحة باللغة الفرنسية .

« ... ولم تكن الكاتبة في بحثها مثل أغلبية المستشرقين الذين يهتمون كثيرا بالعموميات والمعلومات السطحية التي تكون موجهة عادة لجمهور محدود بل انها تناولت الشعر التونسي من كل جوانبه ... »

والكاتبة في دراستها اعتمدت على ثلاثة عناصر هي : نمط التعليم والوسط الاجتماعي والمستوى الفني للشعراء الذين اقتصرت على دراسة انتاجهم وقسمتهم الى ثلاثة أجيال : جيل العمودي ، وجيل الحر ، ثم جيل في غير العمودي وغير الحر الذي قالت عنه المؤلفة : رفض حتى اللغة العربية الفصحى ودعا الى لغة ثالثة بين الفصحى واللهجة الدارجة كما انه قاوم الجيليين السابقين وتقوقع على نفسه كثيرا في النهاية .

● **الحياة الثقافية :**

صدر العدد الجديد من مجلة « الحياة الثقافية » س 6 مارس أفريل ماي جوان 1981 . العدد 14 و 15 ويحتوي هذا العدد في باب الدراسات على العناوين التالية : « تجاوب رجال الاصلاح في تونس مع الاحداث التركية في بداية الربع الاخير من القرن 19 هـ » و « مخائيل نعيمة في اليوم الاخير » و « الحضور العربي الاسلامي في الثقافة الصقلية » وغيرها من الدراسات .

اما في باب الشعر فنقرأ : « البديل » قصيدة : كمال عبد الرحمان ، وقصيد : لنور الدين صمود بعنوان : «أيها الشادي» أما في مجال القصة فقد نشرت المجلة لأحمد الطويلي قصة بعنوان : « الليل يأتي » ، كما نشرت فصلا من رواية لعمر بن سالم بعنوان : « كمندوس المعذبين » . وفي باب « لقاء »

التقت المجلة بالشاعر الجزائرى : محمد الاخضر السائحى . وبجانب هذا نجد ـ نقد الكتب ـ النشاط الثقافى ـ عالم الكتب ـ نصوص قديمة ـ الفهرس العام للسنة الخامسة (1980) من مجلة « الحياة الثقافية » .

● **من وحي الاسلام :**

هذا عنوان كتاب جديد صدر أخيرا من منشورات مجلة « جوهر الاسلام » والكتاب يضم الافتتاحيات التى كان كتبها الفقيد الشيخ الحبيب المستاوى لمجلة « جوهر الاسلام » التى اسسها سنة 1968 .

والتى واصل اصدارها بعده ابنه البار الاستاذ : محمد صلاح الدين المستاوى الذى وضع المقدمة لهذا الكتاب الذى يحمل عنوان : « من وحي الاسلام » وقد جاء فيها قوله : « والسمة البارزة لاغلب هذه الافتتاحيات هى سعيها لنفى الشبهات عن الاسلام : عبادات ومعاملات ، أحكاما وتشريعات ونفض الغبار عن حقائق الاسلام ، وازاحة الحجب التى تجعله غير واضح فى أعين كثير من الناس بالاضافة الى دفع الافتراءات والاباطيل التى ألصقها به خصومه فى كل العصور » .

● **عبقرية اليوسى :**

صدر هذا الكتاب عن الشركة الجديدة . دار الثقافة . الدار البيضاء . المغرب الاقصى . من تأليف الاستاذ : عباس الجرارى يحتوى على 160 صفحة من القطع الكبير .

قسم المؤلف هذا الكتاب الى ثلاثة أقسام هى : اليوسى رائد عصره ومجدده ، بين الامتزاج فى الذات والانصهار فى المجتمع . مواقف جريئة وآراء صريحة . ثم الخاتمة . ويليها القسم الخاص بالببليوغرافيا أو سيرته الببليوغرافية .

نشكر المؤلف على النسخة التى وصلتنا هدية منه ونرجو له دوام التوفيق.

● **فى المعدة وامراضها ومداواتها :**

هذا عنوان كتاب هام لأبى جعفر أحمد بن ابراهيم بن أبى خالد ابن الجزار القيروانى تحقيق الدكتور سليمان قطاية طبع دار الرشيد للنشر من منشورات وزارة الثقافة والاعلام الجمهورية العراقية .

يحتوى الكتاب على 270 صفحة من القطع الكبير .

نشكر المحقق على النسخة التى وصلتنا هدية منه ونرجو له دوام التوفيق فى ميدان التحقيق .

● **صدى « الفكر » فى « المحرر » المغربية :**

كتب الاديب رشيد الذوادى فى ركن متابعات ثقافية من تونس هذه الكلمة عن مجلة « الفكر » بتاريخ 17 جوان 1981 :

مجلة « الفكر » مجلة رائدة بحق ، قد التزمت منذ تأسيسها فى الخمسينات على يد الاديب محمد مزالى على خدمة الانسان العربى وتركيز الثقافة العربية أصدرت أخيرا عددا ممتازا خصصته « لقضايا الشعر العربى المعاصر » وقد كتب افتتاحية العدد الاستاذ محمد مزالى الوزير الاول التونسى وجاء فى هذه الافتتاحية وتحت عنوان : « فى منزلة الشعر » .

« أقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ندوة عن الشعر العربى المعاصر دعت اليها وجوها بارزة من شعرائنا المعاصرين وساهم فى اعمالها نخبة من رجالات البحث والادب والنقد . وانه ليطيب لمجلة « الفكر » ان تخصص هذا العدد لقضايا الشعر العربى المعاصر فتنشر جملة من البحوث والدراسات المقدمة بهذه الندوة التى نظمت بالمركز الثقافى الدولى بالحمامات تونس » .

● **اكتشاف مخطوطات هامة للعالم ابن سينا فى المانيا :**

ذكرت مجلة « فرنسا والدول العربية » فى عددها الاخير ان الاستاذ بوفهارا بيرجنس من جامعة ويرطنبرغ بالجمهورية الدمقراطية الالمانية اكتشف 25 مخطوطا جديدا للعالم ابن سينا .

وتشتمل هذه المخطوطات على شروح تتعلق بكتاب ابن سينا / القانون / وبحوث حول الحمى والنبض .

وأوضحت المجلة انه تم اكتشاف هذه المخطوطات فى خزانات حديدية خلال الحرب العالمية الثانية كانت على ملك جامعة ليبزيغ وهى من الغنائم التى استحوذ عليها الاتراك خلال الحروب العثمانية فى أوربا سنة 1690 .

● **« الاخلاء » فى مجلة « الاقلام العراقية » :**

كتب الناقد المعروف الاستاذ طراد الكيسى عن العدد العاشر من مجلة « الاخلاء » فى مجلة « الاقلام » العراقية يقول :

« **هذا هــو العدد العاشر من مجلة « الاخلاء » السنة الثانيــة 1980 التى تصدر فى تونس بجهــد شخصي ، والطريف فى تجربة هذه المجلة كما يقول مديرها المؤسس الاستاذ الصادق شرف :** (انها اختصت بتجربة فريدة من نوعها فى تونس تتمثل فى تخصيص كل عدد من اعدادها لاحد شبان الادب الطليعى ــ وخاصة الشعراء منهم ــ مشاركة منها فى ايصال الانتاج الادبــى الى القراء لتوثيق اواصر التلاقى بين الباث والمتلقى مباشــرة ...) **وهــذا العدد الذى نحن بصدده خاص بدراسة تحليلية حول ما يسمــى فى تونس بـ « الشعر المنجمــى » للاديب محمد العايش القوتى . فمـا هــو الشعــر المنجمــى ؟ » .**

وبعد ان يستعرض الاستاذ طراد الكبيسى آراء الذين كتبوا عن الشعــر المنجمى يقدم رأيــه الشخصى ووجهة نظره فــى هذه التسمية فــى تحليل موضوعى يتسم بالعمــق والايجابيــة ، ثم يختتم مقالــه الممتد علــى ثلاث صفحات من مجلة « الاقلام : العدد : 4 ــ السنة 16 ــ شبــاط (أفريــل) 1981 » بقوله :

« **أخيرا نحيــى مجلة « الاخلاء » الطريفة المنسجمة فى تسميتها وخطتها وما تقدمه للقارىء العربى .. وجهــود القائمين عليهــا .. انها الزميلــة التى نحس انها فرع منا .. ونحن منها .. متمنين لها التقدم والازدهار .**

● جــوزابيت ومــراد :

رواية اهدانا اياها صاحبها عادل العروى من منشورات نعمــان بمدينــة كيبيك بالكندا تطرق ــ عن طريق علاقة خاطفة لحب مستحيل التحقيق او قل: مستحيل التواصل والدوام ــ عديدا من المشاكل الكبرى نشعر انها تستبد باعماق الكاتب ويحترق من اجلهـــا .

والرواية مليئة بالذكريات التاريخية الواضحة الصارخة المنبثة بالرغــم من الظروف المهولة لحاضر البشرية عن صورة لماعة شفافة للمستقبل هى رهينة ارادة جامحة للتحرر وامل ويقين بالنصر .

فالرواية من الادب التونسى الفرنسى اللغة ، الــذى تفخــر بــه تــونس والذى يضعها فى مستوى الادب العالمى .

● **عناقيد الفرح الخاوى :**

هذا عنوان المجموعة الشعرية الاولى للشاعر الشاب : المنصف المزغنى . وتحتوى على 68 صفحة من القطع المتوسط صدرت أخيرا عن مؤسسة ديمتير 1981 . والمجموعة بخط الشاعر وتحتوى على العناوين التالية : الحمامة البيضاء ، علاقة عشق ، اللجوء الى جبهة المعشوقة ، عناقيد الفرح الخاوى وهى أطول قصيدة ولعل ذلك ما جعل الشاعر يضع لها اسماء كثيرة وقد تدل كثرة الاسماء على رفعة المسمى ومنها نقرأ مثلا : وأشهد/القلب مملكة للوطن / وان كان فى القلب بعض الشغور / لبعض الشؤون الصغيرة / لمن مثلا ؟ / لامرأة مثلا / فلا بأس / يا أيهذا الوطن ...

نشكر الشاعرعلى النسخة التى وصلتنا هدية منه ونرجو له اطراد التوفيق .

● **الاغتسال من الهم :**

هذا عنوان المجموعة الشعرية الاولى للشاعر الهادى المرابط صدرت عن مطبعة المعارف بسوسة فى جويلية 1981 وقد نشرت أغلب قصائدها فى الجرائد والمجلات التونسية .

« الى وطنى .. وبلدى .. الى روح ولدى والزهراء الحبيبة » . هكذا أهدى المرابط مجموعته نشكره على النسخ التى وصلتنا هدية منه ونرجو له اطراد التقدم ونضج العطاء .

● **ذكريات عن مكتب المغرب العربى فى القاهرة :**

أصدرت الدار العربية للكتاب تاليفا قيما بقلم الاستاذ : الرشيد إدريس فى 210 صفحة من القطع الكبير . وفحوى الكتاب يدل عنه عنوانه .

نشكر الصديق المؤلف على النسخة التى وصلتنا منه ونرجو له دوام هذا العطاء الخاص بالمواضيع التاريخية الهامة .

● **رحلة الى القدس :**

هذا عنوان كتاب للمؤلفة الامركية : غريس هالسيل التى دافعت فيه بموضوعية عن حق الشعب الفلسطينى المهضوم .

وقد كانت احدى محطات التلفزيون الامريكى بثت لقاء مع هذه المؤلفة بينت فيه نوعية الحياة المفروضة على الفلسطينى بالضفة الغربية المحتلة من قبل زبانية الحكومة الصهيونية بفلسطين المحتلة .